الطبعة الثانية

محمد إبراهيم مبروك

كُن قويّا بالإيمان

عقيدة الإسلام
ومنهج فى بناء الشخصية القوية



كن قويًا بالإيمان



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة في ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆◆◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

◆◆◆

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

محمد إبراهيم مبروك

كن قويًا بالإيمان



الكتاب: كن قوياً بالإيمان

الكاتب: محمد إبراهيم مبروك

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة الثانية: القاهرة ٢٠٠٩

الغلاف

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكتروني:

وحدة الحاسوب بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد

رقم الإيداع: ١٥٧٢٣ / ٢٠٠٩

إهداء

إلى الرسول ﷺ

ثم

برغم تغير الظروف والمواقف

إلى أول إنسان قرأ لي في الوجود

ثم

إلى.........................

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

يعد كتاب "كن قويًا بالإيمان" نغمة نشاز جدًا في مقابل قعقعة الأصوات القائمة التي تخاطب الإنسان على أنه كائن ينتمي إلى أحد الكيانات أو التيارات الجماعية المسيسة أو غير المسيسة.

فكتاب "كن قويًا بالإيمان" كتاب يتوجه إلى الإنسان العادي بعيدًا عن كل هذه الأشكال والتيارات.

إنه يتوجه للإنسان الفرد العادي جدًا المسلم بل وغير المسلم أيضًا ليقول له: كيف يصنع الإيمان بالعقيدة الإسلامية الأسس التي تستطيع أن تعيش عليها في مواجهة طوفان المادية النفعية الذي يجتاح العالم اليوم ويجرف أمامه كل شيء. وما هو المنهج الذي تستمده منها لبناء الشخصية القوية التي تطلبها القدرة على النجاة من هذا الطوفان. ويقول له أيضًا كيف من الممكن أن تصنع ذلك استقلالاً في ظل فقدان القدرة على اختيار كيان جماعي ما، أو فقدان القدرة على تحمل أعباء الدخول فيه، أو فقدان وجود هذا الكيان الجماعي المنشود أصلاً.

وحتى على فرض وجوده والدخول فيه فلن يضره امتلاك الفرد هذه القوة الإيمانية الاستقلالية، بل من الأكيد أنها ستفيده.

وكتاب "كن قويًا بالإيمان" هو أكثر كتبي التي لاقت نجاحًا لدى الجمهور على الأقل وهو أقرب كتبي إلى نفسي وهو ليس مجرد كتابًا تقليديًا من الناحية المنهجية في الكتابة فلقد كان حين كتابته يحمل رسالة إلى شخص ما على وجه التحديد بهدف إنقاذه من الهوة البشعة التي يتزلق إليها (ومن ثم فقد يكون هذا الكتاب هو أطول رسالة في التاريخ) وهو يحمل نفس الرسالة إلى كل إنسان على ظهر الأرض من الممكن أن يتعرض لنفس ما تعرض له هذا الشخص وهذا ما يفسر لماذا حملت عبارات هذا الكتاب لغة خاصة جدًا... لغة تجمع بين العقل والشعور وتخاطب الإنسان كافة وليس جانبًا واحدًا منه ولم أكتب أنا نفسي مثل هذه اللغة في غير هذا الكتاب.

وحين أقول إن هذا الكتاب موجه لغير المسلم أيضًا فإنني أقصد بذلك أنني تعمدت عند

كتابته أن أعرض العقيدة الإسلامية ومنهجها في صناعة الإنسان القـوي بالطريقـة الـتي تكشف للإنسان الباحث عن الحقيقة في كل مكان في هذا الوجود أيا كان انتمـاؤه إنهـا الطريق الوحيد لتحقيق الغايات الكينونية في داخله وبلوغ النجاة من طوفان المادية النفعيـة المعاصرة التي تحطم آدميته.

وما فعلته في هذه الطبعة الجديدة هو أنني قد أضفت قسمًا جديدًا يتحدث عن العقيـدة الإسلامية من الناحية العلمية بشكل شامل وتفصيلي ولكنه موجز ومركز لدرجـة كـبيرة. والحقيقة أن هذا القسم كان مدرجًا بالفعل في النسخة المعدة للطبعة الأولى (وإن كان مختصرًا عما هو الآن) ولكنه فقد في ظل الظروف المأساوية التي تمت فيها تلك الطبعة السابقة.

وفـي الوقت نفسه فقد تم حذف القسم الخاص بعلم النفس في الطبعة السابقة بعد أن اتسعت فصوله ومواده ليتم إعداده للإصدار في كتاب مستقل قريبًا بإذن الله.

وظل القسم الأساسي من الكتاب المتعلق بالمنهج المستمد من العقيدة الإسلامية في بنـاء الشخصية القوية تمامًا كما هو، لم أكد أستطيع أن أضيف إليه جملة واحدة بل إن اللغة الـتي أكتب بها هذه المقدمة لهي في ذاتها دليلاً على أنني لا أستطيع ذلك ومع هذا فهنـاك عبـارة تكررت إضافتها إلى عدد من المواضع أشير فيها إلى أنه في ظل الظروف الكارثية التي تعيشها بعض المجتمعات الإسلامية فإن واقعية الموقف تفرض علينا عـدم المبالغـة في الطمـوح إلى الدرجة التي تدفع الإنسان المسلم إلى السعي لمواجهة الفساد العام فإنه ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وإنما قد يكون أقصى ما تفرضه هذه الظروف أن يسعى الإنسان المسـلم إلى النجاة بنفسه ومن هم مسئول عنهم من هذا الطوفان لا أكثر فيغلق على نفسه بابه ويبكـي على خطيئته كما أوصى الرسول ﷺ المسلمين عند التعرض لظلمات الفتن.

وهذا الكلام لا أقصد تعميمه على كل المجتمعات الإسلامية فهناك الكثير منـها تظـل رسالة الكتاب إلى المنتمين إليها هي كما هي أي كما جاءت في الكتاب في طبعتـه الأولى ولكنني كما أشرت سابقًا فإن إضافة هذه العبارة يصبح أمرًا ضروريًا للغاية في ظل تلـك المجتمعات الكارثية التي يغدو أقصى أمل للإنسان فيها هو أن ينجو بنفسه.

ها أنا أتحدث بهدوء شديد عن عاصفة.

محمد إبراهيم مبروك

الجيزة

اغسطس:٢٠٠٩

مقدمة الطبعة الأولى

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء: ٩).

إن هذه الآيات تضعك بكل حسم أمام هذه الحقيقة أن الإيمان يرتبط وجودًا وعدمًا بحقيقة تسليم الإنسان أو عدم تسليمه بأن ما يحدده التشريع المُستَمَدُّ من الله فى أى أمر من الأمور هو الحقيقة الوحيدة التى يجب التسليم بها، وأن ما دون ذلك من الآراء أو المعتقدات أو الفلسفات أو الشرائع أو العادات أو التقاليد ليس سوى باطل يجب الكفر به، بل إن الاعتقاد بصحة أى شىء من ذلك هو نفى لإيمان الإنسان.

إن ما يقوله الله ورسوله هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال.

وما يريده الله ورسوله هو المعيار الوحيد للحكم على الأشياء، ولا قيد للإنسان فى هذا الوجود يستوجب قبوله إلا قيدًا وضعه الله ولا حرام فى هذا الوجود على الإنسان أن يقف عنده إلا حرامًا حرّمه الله.

إننى دائمًا أتساءل:

إذا كان الله قد أحل شيئًا ما فى هذا الوجود فمن ذا الذى يحق له تحريمه؟!!...

كيف من الممكن أن تقول مثلاً:

إنه من الخطأ والعيب أن أفعل هذا لأن العرف والتقاليد يمنعانه بالرغم من أن الله قد

أباحه، أى حُكْمٍ هذا للعرف أو للتقاليد من الممكن أن يُقَدَّمَ على حُكْمِ الله؟.. وكيف من الممكن أن تعتقدَ بصحة تقديم حُكْمِ العرف والتقاليد على حُكْمِ الله، وتعتقد أيضًا أنك تظل مع ذلك مسلمًا؟!!....

كيف من الممكن أن تقول مثلاً:

إن هذه الأفكار لم تعد صالحة للواقع الذى نعيشه، والذى صارت فيه المصلحة أو المنفعة العملية هى المعيار الوحيد للحكم على الأشياء.. كيف من الممكن أن تعتقد بصحة تقديم هذا المعيار على المعانى المُستَمَدَّةِ من القيم الإسلامية وتعتقد أيضًا أنك تظل مع ذلك مسلمًا؟!!..

كيف من الممكن أن تقول:

لقد أقامت إسرائيل ترسانات من القوة العسكرية أما أمريكا التى باتت تغزونا بنفسها ولا تكتفى بمساندة إسرائيل، فقد ركع العالم أمامها وأمست هى القوة الوحيدة التى تحكم العالم، فأنَّى لنا بمواجهة هذا؟!!..

هل من الممكن أن تقدِّم هذا المنطق على قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم: ٤٧) بدلاً من أن تأخذ بسنن الله فى الأرض وتُعِدَّ لهم ما استطعت من القوة وتعتقد مع ذلك أنك تظل مسلمًا؟

كيف من الممكن أن تقول:

إن الواقع يفرض نفسه على كل الأشياء، وإن الحقائق والمفاهيم قد اختلطت حتى فقد الناس القدرة على التمييز بينها، بل إن الناس تحت ضغط الظروف الطاحنة لم يعد يهمهم فى شىء حق أو باطل، وبات غاية ما يفكرون فيه هو امتلاكهم القدرة على أن يعيشوا أيًّا كان نوع هذه المعيشة، وصارت الحياة كلها عبث فى عبث، كيف من الممكن أن تقول ذلك والله يقول:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٥)

وتعتقد أنك مع ذلك تظل مسلمًا؟!.....

أمر لا فصال فيه، فإما أنك تؤمن بالإسلام أو لا تؤمن، فإن كنت تؤمن بالإسلام فليس هناك أى مصدر آخر تتلقى منه تصوراتك وقيمك وقواعد سلوكك، وإما أنك لا تؤمن به

فاختر المصدر الذى تتلقى منه هذه الأشياء من حيث تشاء فليس بيننا وبينك سبيل.

إن هذا الفصام المختلق بين عقيدة المسلم وتصوراته وسلوكه، هو الذى جعل من المسلمين كائنات هشة لا حول لها ولا قوة، تتداعى عليها الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، وبدلاً من الإعداد والتحدى والمواجهة ركنوا إلى الاستسلام لكل ما يصيبهم من الاعتداء كشياه تمضى إلى الذبح فى هدوءٍ عجيب.

إن الإسلام لا يتراجع أمام الواقع ولا يحجم عن اقتحامه والتفاعل معه ومن ثم استيعابه وإصلاحه وتقويمه فى صبرٍ وأناة - بقيمه وحكمته ومنهاجه القويم - لكى يستنهضه ويرفعه ويسمو به إلى مثله العليا وغاياته المنشودة، هذه هى الواقعية التى نفهمها وليست الواقعية التى لا يفهمها سوى الضعفاء والانهزاميين والتى لا تعنى سوى الاستسلام المخزى للأمر الواقع.

إنه المنهج الإسلامى الذى إذا أردنا أن نعبر عنه بصيغة فلسفية معاصرة نقول: "إنه المثالية الواقعية: المثالية التى تسمو بالإنسان إلى رضا الله ورضوانه، والواقعية التى تفرض عليه التعامل مع الواقع بموضوعية كاملة"[1].

وهذا الكتاب الذى نقدمه هنا يتناول أثر العقيدة الإسلامية على تصورات المسلم وقيمه وسلوكه فى الواقع المُعَاشِ، والعمل على وضع منهج إسلامى لبناء الشخصية القوية من الأسس الإيمانية لهذه العقيدة.

ولذلك فهذا الكتاب كتاب عقائدى فى الدرجة الأولى ولكنه لا يتناول العقائد الإسلامية من حيث كونها قواعد علمية يُرَادُ بهذه العقائد دفع ما يتعلق بها من دواخل جاهلية فقط كما تفعل أغلب كتب العقائد، ولكن من حيث فعاليتها فى حياة المسلمين.

لكن علماء النفس الغربيين يقولون لنا: عن أى شيء تتحدثون؟ وأى بناء هذا الذى تريدون أن تقيموه؟ فالإنسان مجرد تركيب مادى عنصرى، وكل ما يتعلق بالأفكار والسلوك هو مجرد ناتج كيماوى عن عمليات التفاعل بين الجزيئات الداخلة فى تركيب الإنسان، فليس هناك شيء يسمى العقل أو حرية الإرادة بله أن يكون هناك شيئًا يسمى الروح.

كما أنه ليس هناك تعريف دقيق لما يسمى بشخصية الإنسان، ولا توجد تلك التفرقة المُشَاعَةِ بين الشخصية القوية والشخصية الضعيفة، وإنما المعيار الوحيد للشخصية السوية أو

---

(١) الإسلام النفسى للمؤلف ص ٥٣.

غير السوية يدور حول ما يتعلق بمدى تلاؤمها مع الوسط الاجتماعى الذى تعيش فيه، ولذلك فقد تعيَّن علينا لكى نضع منهجًا إيمانيًّا منطقيًّا لبناء الشخصية القوية أن نحدد قبل ذلك ما هى رؤيتنا الإسلامية لكل هذه الأمور؟

* ما هو التركيب العضوى للإنسان الذى يقوم بالوظائف السلوكية؟

* أين العقل وأين الروح وما هى حقيقة النفس الإنسانية؟

* ما هى المحددات الأساسية فى تركيب النفس الإنسانية؟

* ما هى الكيفية التى تتحرك من خلالها سلوكيات الإنسان؟

* ما هو دور حرية الإرادة فى كل ذلك؟

* ما هى الشخصية القوية؟ وما هى الشخصية الضعيفة؟

وتحديدنا لكل هذه الأمور إنما ينطلق من وعينا الإيمانى بها، ذلك الوعى الذى يشتمل على الواقعية والعقلانية فى التفكير.

ولقد استلزم تحديدنا لهذه الأمور أن نتعرض بالنقاش لمنهج علم النفس الغربى ولبعض نظرياته وعلى رأسها نظريات فرويد فى التحليل النفسى القائمة على أساس الجنس وذلك فى حدود القدر الذى يسمح به موضوع الكتاب، وإن كانت هذه النظريات تستحق أن نفرد لها كتابًا خاصًّا وذلك لما يُرَوِّجُ له العلمانيون من مصداقية زائفة لها تخدع الكثيرين.

* قد يقول بعض القراء الذين اطلعوا على كتبى السابقة: ها هو قد يجنح فى مقدمته إلى حيث يميل فكره إلى مناقشة الأفكار والفلسفات الغربية، ولكن أطمئنهم، لن أجنح إلى ذلك فى هذه المقدمة، والموضوع الذى أقدمه فى هذا الكتاب من أهم المحاور التى يدور عليها فكرى، كما أنه من أقربها إلى نفسي، ويكفى أن أقول: إننى قد بدأت الكتابة فى هذا الموضوع منذ أكثر من اثنتى عشرة سنة ثم على فترات مختلفة بعد ذلك ثم تكثف الأمر لدى فى العامين الأخيرين بوجه خاص لأكمل ما قد بدأته منذ تلك المدة الطويلة.

وها أنا قد بلغ بى الجهد مبلغه و لم أقل كل الذى أريد أن أقول، ولكن الأمر الذى لا أستطيع أن أذهل عنه هو أن أقول لك:

أيها الإنسان.. اخرج من ذلك الوهم الكبير.

وَهْمُ الاعتقاد بأن الشخص العاقل هو الشخص الذى يمشى على الطريق الذى يحدده له مجتمعه حتى ولو كانت القيم التى تسود ذلك المجتمع هى قيم الجهل والفساد فتستسلم بذلك لتلك القيود التى يقودك بها هذا المجتمع كشاة تمضى إلى مصيرها المحتوم، أى: إلى الذبح.

لا...........

لابد أن تمزق تلك القيود التى ينسجون منها كفنك وتحطم تابوت وهمك، لا بد أن تخرج من تابوت الخرافة الذى أرادوا أن يسجنوك فيه، لتمض فى الطريق المستقيم الذى حدده الله للمجتمع الإسلامى المنشود وليس طريق الضلال الذى حددته أهواء البشر.

محمد مبروك

الوراق – ديسمبر ١٩٩٢

القسم الأول

عقيدة الإسلام

عقيدة الإسلام

ما هي عقيدة الإسلام؟

هل هي عقيدة تحمل الكثير من الصعوبات والتعقيدات؟

هل هي عقيدة قابلة للتجديد أو التطوير؟

في الحقيقة فإن عقيدة الإسلام عقيدة سهلة وبسيطة وواضحة وضوحًا مضيئًا وليس بها أية تعقيدات أو صعوبات لأن معرفة الله وعبوديته لا يمكن أن تشتمل على أية تعقيدات أو صعوبات.

كما أنها عقيدة لا يمكن أن تكون إلا ثابتة ثباتًا أبديًا لأنها العقيدة التي تعبر عن الحقيقة ذاتها.

وهي عقيدة تتلخص في جملتين فقط تتمثلان في الشهادة (لا إله إلا الله. محمد رسول الله).

لا إله إلا الله

نفي وجود أي إله سوى الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

هو وحده الخالق الباري رب الوجود، وهو وحده الذي لا يعبد سواه.

هو وحده الخالق الباري لا شريك له ولا والد ولا مولود.

هو وحده الذي لا يعبد سواه لا شريك له ولا شفيع ولا وسيط.

محمد رسول الله

أي نؤمن بأن محمد هو الرسول الذي أرسله لنا الله لنعبده من خلال رسالة الإسلام التي أرسلها لنا، أي أن تكون عبوديتنا لله من خلال رسالة محمد ﷺ.

فنؤمن بالعقيدة التي بينها لنا محمد ﷺ ونتبع الشرائع التي جاءنا بها محمد ﷺ.

ولقد بين لنا هذا الرسول ﷺ أن الإيمان هو أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

أركان الإيمان

أولاً: الإيمان بالله

توحيد الربوبية:

نؤمن بالله الواحد الأحد ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾

الخالق الباري ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾.

هو الخالق الباري الذي خلقنا وخلق الكون جميعًا وهو رب الناس أجمعين وهو مالك الأمر في هذا العالم كله لا شريك له في ملكه ولا معقب له في حكمه.

ويتناقض مع هذا الإيمان:

- الاعتقاد بأن الله هو مجرد المهندس أو البناء الأعظم لهذا الكون وليس الخالق له من العدم والراعي له.
- الاعتقاد بأن الله هو النظام الساري في هذا الكون.
- الاعتقاد بأن الله هو الطبيعة.
- الاعتقاد بحلول الله في مخلوقاته أو اتحاده معهم أو ما يسمى بمذهب وحدة الوجود.

توحيد الأسماء والصفات:

ونؤمن بأن الله هو المتصف بكل صفات الجلال والكمال التي جاءت في رسالة محمد ﷺ من كتاب وسنة. فهو الأول والآخر، الحي القيوم، المحيي المميت، العليم الحكيم، السميع البصير، الظاهر الباطن، الغفور الرحيم، المنتقم الجبار، القريب المجيب، العلي القدير، "قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء، لا يفنى ولا يبيد، ولا يكون إلا ما يريد، لا تبلغه الأوهام

ولا تدركه الأفهام، ولا يشبه الأنام، حي لا يموت، قيوم لا ينام"[1].

خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وهو معنا أينما كنا ويده فوق أيد المؤمنين، ينصر من ينصره، ويعادي من يعاديه، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ وهو ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ و﴿ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ و﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ وهو الدائم الباقي ولا يبقى سوى وجهه ﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾.

نؤمن بكل ما سبق وغيره مما ورد في الكتاب والسنة من أسماء وصفات دون تشبيه أو تمثيل أو نفي أو تعطيل أو رد أو تأويل ولكن في إطار قوله تعالى جل شأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

فكما قال الإمام الشافعي "آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله"[2].

وكما قال الإمام مالك "الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة"

وكل ما خطر ببالك فالله غير ذلك فهو الواحد الأحد الخالق المصور المتره المتعالي عن عباده وعن أن يشبه شيء من صفاته شيئًا من صفات خلقه.

عجزت فلاسفة الوجود بعقلها المحدود عن إدراك ذات وصفات رب الوجود وليس لها سوى الاهتداء والتسليم بما جاء في رسالة نبيه الكريم، ﷺ، من أسماء وصفات ربه المعبود.

وكما قال الإمام الطحاوي: "لا تثبت قدم المسلم في الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام فمن رام (ابتغى) على ما حظر علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوسًا تائهًا شاكًا، لا مؤمنًا مصدقًا، ولا جاحدًا مكذبًا"[3].

ومما يناقض الإيمان بصفات الله الاعتقاد بأن الله يعلم الكيانات ولا يعلم الجزئيات أو الاعتقاد بأن هناك من يعلم الغيب غيره لأن الله هو عالم الغيب وحده وهو القائل لرسوله

---

(١) العقيدة الطحاوية (متون التوحيد): ص ١٥٣ – ١٥٤.

(٢) لمعة الاعتقاد (متون التوحيد): ص ١٦٨.

(٣) العقيدة الطحاوية (متون التوحيد): ص ٢٥٧ – ٢٥٨.

ﷺ في كتابه العزيز: "قل لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير".

ولذلك جاء في الحديث الشريف: "من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنــزل على محمد" (حديث صحيح رواه أبو داود وصححه الألباني).

وهذا الكلام ينطبق على أحوال كثيرة يعمل الكثيرون على معرفة الغيب مــن خلالهــا مثل: ضرب الودع – الكوتشينة – الفنجان – الأبراج، وأشياء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان وكل من يعمل على معرفة الغيب من خلال هذه الأشياء ويصدق ذلك يكون بهذا قد كفر بما أنزل على محمد ﷺ كما نص الحديث.

توحيد الألوهية:

ونؤمن بأن الله وحده هو الإله المعبود، لا إله غيره، المتفرد وحده بالعبادة (والتي تعني الجمع بين الحب والطاعة والارتقاء بهما إلى كمالهما) إياه نعبد وإياه نستعين لا نعبد أحدًا ســواه ولا نستعين بأحد سواه هو وحده الذي نتوجه إليه دون سواه بجميع الأعمــال التعبديــة القلبيــة والشعائرية من صلاة ودعاء وتوكل وخوف ورجاء واستعانة واستغاثة ونذر وتذلل وخضوع.

وكما قال الرسول ﷺ لابن عباس: "يا غلام: إني أعلمك كلمات

إحفظ الله يحفظك

إحفظ الله تجده تجاهك

وإذا استعنت فاستعن بالله

وإذا توكلت فتوكل على الله"

وهو وحده الذي لا نعبد سواه بالخضوع لأحكامه وأوامره وشرائعه مع الحب والتسليم فهــو وحده الحاكم الآمر الذي نعود إلى حكمه وأمره في جميع القضايا والأمور التي تشــكل حياتنــا ونظام معيشتنا وكل ما يتعلق بدنيانا من سياسة واقتصاد واجتماع وغير ذلك من الأمور.

فتحقيق هذا التوحيد يتلخص في كلمة واحدة هي: لا

لا لأية وسائط بين الإنسان وبين الله سوى تبليغ الرسل للرسالة

- فلا نعبد إلا الله
- ولا ندعو أحدًا سواه

- ولا نستعين إلا به
- ولا نستغيث إلا به
- ولا نطلب مددًا إلا منه
- ولا نذبح ولا ننذر إلا له
- ولا نتوكل إلا عليه
- ولا يحكمنا أحد سواه
- ولا نحب ولا نكره إلا في طاعته

فمما يقتضيه توحيد الألوهية ألا يتوجه الإنسان بأي عمل من أعمال العبودية إلا لله ﷻ مثل:

- **الاستعانة بغير الله:**

لقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

ولقول الرسول ﷺ: "وإذا استعنت فاستعن بالله".

- **التوكل على غير الله:**

لقول الرسول ﷺ: "وإذا توكلت فتوكل على الله".

- **الاستغاثة والدعاء لغير الله:**

لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ (الأحقاف: ٥ ، ٦).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ (يونس: ١٠٧).

- **النذر والذبح لغير الله:**

لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ (الأنعام:١٦٢ ، ١٦٣)

قال المفسرون: النسك هو الذبح

قال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي: النذر لغير الله إشراك مع الله كالذبح لغيره"[1]

يقول الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي الشافعي: "فمن ركع أو سجد لحي أو لميت أو نذر لغير الله كأن ينذر لقبور الأولياء أو الصالحين أو يذبح لهم، أو للأشجار أو للعيون، أو يطوف بقبر نبي أو ولي كأن يطوف بقبر الرسول ﷺ أو بقبر علي بن أبي طالب، أو بقبر الحسين أو الحسن، أو علي بن موسى الرضا، أو عبد القادر الجيلاني أو البدوي أو الرفاعي أو غيرهم. أو يستغيث بهم في الشدائد، كأن يقول: يا رسول الله أنقذني، يا رسول الله فرج عني هذا الكرب، المدد يا عبد القادر يا جيلاني، المدد يا سيد يا بدوي. أو يطلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يطلب عافية من مرض له أو لغيره، أو قدوم غائب، أو يرزقه أو نحو ذلك من الأمور التي ليست في قدرة المخلوق أن يفعلها. فإنه يكون بكل فعل من هذه الأفعال مشركًا بالله العظيم شركًا أكبر، لا يغفر الله له إلا أن يتوب لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٨).

أما ما كان في إمكان المخلوق الحي فلا بأس بأن نستعين به مثل أن تطلب منه أن يعينك في قضاء حاجة، أو إنقاذ من غرق أو حريق، أو ما سوى ذلك"[2].

– التوسل إلى الله يكون بالإيمان بالله وبرسوله وبالأعمال الصالحة وليس بقبور أحد من الصالحين:

يقول الله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾.

ومعنى الوسيلة هنا: "التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة أو بأسمائه وصفاته لا كما يقول المبتدعون، أن تجعل الأنبياء والصالحين شفعاء ووسطاء ويقولون أنها من الوسائل المأمور بها ويفسرون الآية بها"[3].

---

(١) نقلاً عن الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ – فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ص ١٥٩.

(٢) تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران: ص ٣٧: ٣٩.

(٣) المرجع السابق: ص ٦٧ ، ٦٨.

فالتوسل المشروع قسمان:

القسم الأول: هو التوسل بالإيمان بالله وبرسوله وبالأعمال الصالحة.

القسم الثاني: التوسل بدعائه ﷺ يوم كان حيًا (وليس طلب ذلك منه بعد الوفاة) فقد كان يأتيه السائل فيسأل الرسول ﷺ أن يطلب له من الله العافية كما طلب الإعرابي منه أن يستسقي لهم في الحديث الذي أخرجه البخاري. وكما طلبت الجارية السوداء — التي كانت تصرع — أن يعافيها الله، فخيرها الرسول ﷺ بين الصبر وبين أن يدعو لها فاختارت الصبر وسألت أن يدعو الله ألا تتكشف عندما يأتيها الصرع فدعا لها بذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري أيضًا.

وهذا التوسل بدعائه هو الذي قد انقطع بعد وفاته ﷺ — فلا يجوز لمسلم أن يأتي قبر الرسول، ﷺ، ويسأله حاجة أو غفران ذنب أو كشف ضر. والدليل على ذلك: أنه في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، انقطع المطر وأراد عمر أن يستسقي وطلب من العباس بن عبد المطلب أن يدعو لهم بالاستسقاء فقال: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ثم قال: قم يا عباس فادع الله لنا. رواه البخاري.

والمقصود هنا أن عمر بن الخطاب توسل إلى الله بدعاء العباس عم الرسول الحي ولم يذهب إلى قبر الرسول ﷺ، فيتوسل به إلى الله. فلو كان التوسل بالرسول بعد موته لما عدلت الصحابة عن الرسول ﷺ، إلى عمه العباس بن عبد المطلب. وهو الأمر الذي علق عليه الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري (٢ / ٤٩٧) بقوله: "يستفاد من قصة العباس الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة" أي بدعائهم وهم أحياء[1].

– التبرك بشجرة أو حجر أو نحوهما.

عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع الرسول ﷺ، إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعلقون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٨) لتركبن سنن من كان

---

(١) راجع المرجع السابق: ص ٦٠: ٦٣.

قبلكم" رواه الترمذي وصححه وصححه الألباني أيضًا.

والحديث يتحدث أن هؤلاء الحدثاء عهد بكفر أي الذين لم يسلموا إلا منذ وقت قريب عندما رأو شجرة (السدرة: شجرة النبق) يعلق بها المشركون أسلحتهم للتبرك (ينا ط بها: أي يعلق عليها) قالوا اجعل لنا شجرة للتبرك مثلها فبين لهم الرسول ﷺ أن ذلك عمل من أعمال الشرك بالله وأنهم يشبهون بذلك سنن وأفعال الذين قبلهم مثل فعل بني إسرائيل.

ويقول الله تعالى عن آلهة مشركي العـــرب: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (النجم: ١٩-٢٣).

فمن المهم أن آلهة المشركين هذه لم تكن عبارة عن أصنام من التماثيل كمـــا يتصـــور الناس عادة وإنما كانت كالتالي:

اللات: كانت صخرة بيضاء منقوش عليها بيت بالطائف.

والعزى: كانت شجرة عليها بناء وأستار.

أما مناة: فكان حجرًا يراق عنده دماء الذبائح.

ومن ثم فإن تكرر مثل هذه الصور وما يقترن بها من أعمال التبرك في بلاد المسلمين هو تكرار لما كان يحدث في الجاهلية من أعمال الشرك بالله ﷻ.

– ومما يتناقض مع توحيد الألوهية أيضًا التوكل على غير الله:

يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (الزمر: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (الطلاق: ٣)

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

يعني: الله كافي من يتوكل عليه وهو وحده الذي يتوكل عليه فلا يتوكل على غـــيره. وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ أي فهو كافيه وهل يحتاج بعد الله إلى أحد

والكل محتاج إليه؟.

وعن الرسول ﷺ أنه قال: "من تعلق تميمة فقد أشرك" رواه الحاكم ورواته ثقات وصححه الألباني.

وعنه ﷺ أنه قال: "إن الرقى والتمائم والتولة شرك" رواه أبو داود وابن حبان وصححه الألباني.

والمقصود بالرقى هنا هي التي يستعان فيها بغير الله وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته ولم تكن بألفاظ مجهولة فقد أمر بها الرسول ﷺ.

والتمائم هي الأشياء التي تعلق بالأعناق من خرزات وعظام لدفع العين ولا دافع غير الله.

والتولة شيء يصنعه النساء لجلب محبة أزواجهن.

والمقصود ليس هذه الأمور فقط على وجه التحديد وإنما استخدام أي شيء آخر من غير الدين لجلب نفع أو دفع أذى أو حفظ من الحسد فلا نافع ولا دافع ولا حافظ غير الله عليه يتوكل المتوكلون.

- الولاء والبراء:

ومما يقتضيه توحيد الألوهية في الإسلام إخلاص المحبة لله فلا يتخذ العبد من دون الله ندًا يحبه كحب الله ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٦٥).

ويتفرع عن هذه القاعدة مفهوم الولاء والبراء في الإسلام. فالولاء: هو الحب والمحاباة.

والولاية: هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام.

والبراء: هو البعد والخلاص والإعذار[١].

ونجد الكثير من الآيات تشدد على خطورة هذا المفهوم في الإسلام، والتأكيد على حقيقة الإيمان يقتضي إخلاص الولاية لله والبراءة من أعدائه. مثل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ (آل عمران: ٢٨).

---

(١) محمد سعيد بن سالم القحطاني – الولاء والبراء في الإسلام: ص ٩٠.

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (الممتحنة: ٤).

وقد عدد العلماء مظاهر شتى لصور موالاة الكفار منها:

- التشبه بهم في الملبس والكلام وغيرها.
- إعانتهم بمناصرتهم على المسلمين ومدحهم والذب عنهم.
- الاستعانة بهم والثقة بهم وتوليتهم المناصب التي فيها أسرار المسلمين واتخاذهم بطانة ومستشارين[١].

ومنها كذلك:

- الركون إليهم.
- تعظيمهم واطلاق الألقاب عليهم.
- مداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين[٢].

ولكن المشكلة التي ينجم عنها التباسات خطيرة للغاية هي أن الكثير من الكتاب يذكرون مظاهر متعددة لصور الموالاة للكفار دون تحديد أي من هذه المظاهر يعد مناقضًا لحقيقة الإيمان وليس مخالفًا فقط له ومن ثم يشيع إطلاق حكم الكفر على كافة هذه المظاهر لدى الكثير من القراء غير المتعمقين في علوم العقيدة، وهذا أمر خطير للغاية.

ومن ثم فلنعد لكبار أئمة التفسير لنعلم حقيقة الأحكام التي جاءت بها الآيات الناهية عن موالاة الكفار.

- قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾.

---

(١) الشيخ صالح بن فوزان الفوزان – الولاء والبراء في الإسلام: ص ٧-٩.

(٢) محمد بن سعيد بن سالم القحطاني – الولاء والبراء في الإسلام: ص٢٣٨-٢٤٥.

- قال الإمام القرطبي: فيه مسألتان:

الأولى: قال ابن عباس: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء.

الثانية: "إلا أن تتقوا منهم تقاة" قال معاذ بن جبل ومجاهد: كانت التقية في جدة الإسلام قبل قوة المسلمين فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوهم.

قال ابن عباس: هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان ولا يقتل ولا يأتي مأثمًا.

وقال الحسن: التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة ولا تقية في القتل.. وقيل أن المؤمن إذا كان قائمًا بين الكفار فله أن يداريهم باللسان إذا كان خائفًا على نفسه وقلبه مطمئن بالإيمان. والتقية لا تحل مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم"[1].

- وفي تفسير ابن كثير: نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ثم توعد على ذلك فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ أي ومن يرتكب ما نهى الله في هذا فقد برئ من الله كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ - إلى أن قال - ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (الممتحنة: ١).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ (المائدة: ٥١).

وقال تعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٧٣).

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ أي إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته كما روى البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: "إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم". وقال الثوري قال ابن عباس:"ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان.

وكذا قال أبو العالية وأبو الشعثاء والضحاك والربيع بن أنس ويؤيد ما قالوه قول الله

---

(١) تفسير القرطبي: مج٢ ج٤ ص ٥٢ - ٥٣

تعـالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ (النحل: ١٠٦).

وقال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة.

- ومن التفاسير المعاصرة.. جاء في صفوة التفاسير للشيخ الصابوني: "أي لا توالوا أعداء الله وتتركوا أولياءه، فمن غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبة الله وبين محبة أعدائـه. قال الزمخشري: نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر بها ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ أي من يوالِ الكفرة فليس من دين الله في شيء ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ أي إلا أن تخافوا منهم محذورًا أو تخافوا أذاهم وشرهم. فأظهروا موالاتهم باللسان دون القلب، لأنه من نوع مداراة السفهاء كما روى "إنا لنبش في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم"[(١)].

- وجاء في زبدة التفاسير للدكتور محمد سليمان عبد الله الأشقر: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ أي إلا أن تظهروا لهم الموالاة بألسنتكم ظاهرًا وقلوبكم تكرههم، وذلـك إذا كنتم مستضعفين بين الكفار. عن ابن عباس قال: "نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهـم اللطف ويخالفوهم في الدين".

- قول الله تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال الإمام القرطبي: قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ ﴾ أي يعضدهم على المسلمين ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ بين تعالى أن حكمه كحكمهم[(٢)].

والخلاصة مما سبق أنه ليس كل صور الموالاة للكفار - برغم تحريمها جميعًا - سواء في الحكم. فمنها ما هو كفر محض، ومنها ما هو كبيرة من الكبائر، ومنها ما هو دون ذلك.

وقد أجاد الدكتور سيد سعيد عبد الغني خير إجادة في بيان هذا التقسـيم، وذلـك في رسالته الجامعية (حقيقة الولاء والبراء في معتقد أهل السنة) التي حصل بها علـى شـهادة

---

(١) ج١ ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) تفسير القرطبي: مج٣ ج٦ ص ١٩٠.

الماجستير والتي نشرت في كتاب يحمل نفس العنوان، وقد جاء فيها:

خلاصة عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء للكفار:

١ - أن منها ما هو كفر محض وانسلاخ من الدين مثل:

أ - التولي المطلق.

ب - مودتهم لأجل دينهم وسلوكهم، والرضا بأعمالهم، وتمني انتصارهم على المسلمين.

ج - طاعتهم في أمور التشريع.

د - اعتقاد مساواتهم بالمسلمين، وأن المسلمين لا ميزة لهم.

هـ - الوثوق بهم وائتمانهم دون المسلمين.

و - نصرتهم ومساعدتهم على حرب المسلمين.

ز - التشبه بهم إعجابًا واستحسانًا في قضايا التوحيد والعبادات، وكذلك التشبه المطلق بهم.

٢ - ومنها ما هو كبيرة من الكبائر، يكفر إذا استحلها مثل:

أ - اتخاذهم بطانة.

ب - مداهنتهم والتذلل لهم، وملاينة الحربيين منهم.

جـ - المبالغة في تعظيمهم ورفع شأنهم.

د - الدخول في سلطانهم بدون حاجة ولا اقتضاء مصلحة عامة.

هـ - التشبه بهم في أخلاقهم وشعائرهم كالموالد والأعياد.

و - الإقامة عندهم لمن لا يستطيع إعلان دينه مع قدرته على الهجرة.

٣ - ومنها ما هو أقل من ذلك نحو:

أ - ميل القلب غير الإرادي إلى الزوجة الكتابية، أو الابن غير المسلم أو من بذل إلينا معروفًا، أو من كان صاحب خلق وأدب.

ب - مدحهم والثناء عليهم بدون مسوغ شرعي بغض النظر عن دينهم.

جـ - مصادقتهم ومعاشرتهم.

د – الثقة فيهم.

هـ – العمل لديهم مع وجود الإهانة والاحتقار.

و – إلقاء السلام عليهم.

ز – الدعاء لهم بالصحة والعافية وطول العمر ودوام الاستقرار.

ح – تهنئتهم في المناسبات العادية والأفراح مثل الزواج والسلامة من كارثة.

فهذه تتراوح بين التحريم والكراهة بحسب الحال والملابسات.

٤ – وهناك أشياء مباحة لا تعد موالاة، مثل:

أ – معاملتهم بالحسنى واللطف – لاسيما المسالمين منهم –.

ب – الصدقة على محتاجيهم[١].

جـ – الإهداء إليهم وقبول هديتهم.

د – تعزيتهم في مصائبهم على الوجه المشروع[٢].

هـ – رد التحية عليهم، ورد السلام إذا سلموا تسليمًا صحيحًا[٣] بقول (وعليكم).

و – معاملتهم في العقود المالية المباحة.

ز – تأجيرهم المساكن والدور، بشرط ألا تتخذ بؤرة للفساد.

ح – استعمالهم عند الحاجة إليهم في الأمور العادية.

ط – السفر إليهم لأغراض مباحة، مع القدرة على إعلان الدين[٤].

ي – الإقامة عندهم لغرض صحيح، مع القدرة على إظهار الدين.

ك – زيارتهم لغرض مشروع[٥].

وذلك كما زار النبي ﷺ اليهودي عند احتضاره وتلقينه الإسلام.

---

(١) انظر: الولاء والعداء في علاقة المسلم بغير المسلم، للدكتور/ عبد الله بن إبراهيم الطريقي (٦٨: ٧٤) وذلك بتصرف.

(٢) انظر: "الأموال" لأبي عبيد (ص٥٤١).

(٣) انظر: "أحكام أهل الذمة" (١/٢٠٤).

(٤) انظر: "أحكام أهل الذمة" (١/١٩٧) و"فتح الباري" (١١/٤١ – ٤٦).

(٥) انظر: "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٦/١٣).

ل – شمولهم بالرحمة العامة كما في الحديث الصحيح: "لا يرحم الله من لا يرحم الناس".

م – أخذ الجزية منهم وإقرارهم على دينهم.

ن – مصالحتهم ومسالمتهم عند الحاجة، أو عندما يطلبونها.

س – مخالطتهم عند اللزوم، مع عدم الركون إليهم.

ع – الاستفادة مما عندهم في شؤون الحياة الدنيا – كالصنائع والنظم مما لا يدخل في التشريع[1].

ف – أكل طعام أهل الكتاب، والزواج من نسائهم عند الحاجة.

ص – ائتمان بعضهم على بعض الأمور العادية[2].

فهذه وما أشبهها كلها مباحة – بل بعضها ربما يكون – مطلوبًا – بشرط ألا تتجاوز الحدود والقيود التي وضعت لكل منها.

وبهذا يتبين لنا أن القول بإطلاق تحريم الموالاة بحيث تشمل الصور المباحة التي ذكرناها، أنه أمر يفقد الدقة والموضوعية، وكذلك التساهل في العلاقة مع غير المسلم فإنه يخل بالعقيدة. والله أعلم.

وهذا الذي قاله الدكتور سيد سعيد عبد الغني هو ما أؤكد عليه تمامًا.

– الحكم بغير ما أنزل الله:

ومما يتناقض مع توحيد الألوهية أيضا أن يتخذ الإنسان حاكما له غير الله .

لكن المسألة لها تفصيل فلا تترك على عواهنها

– يقول الإمام القرطبي: قوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ و﴿ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ نزلت كلها في الكفار ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء وقد تقدم. وعلى هذا المعظم. فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة. وقيل: فيه إضمار أي ومن لم يحكم بما أنزل الله ردًا للقرآن، وجحدًا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام فهو كافر قاله ابن عباس ومجاهد، فالآية عامة على هذا

---

(١) انظر: "عمدة القاري" (١٧٥/٨).

(٢) انظر: "مجموع فتاوي ابن تيمية" (١١٤/٤).

قال ابن مسعود والحسن: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنـزل الله مـن المسلمين واليهود والكفار أي معتقدًا ذلك ومستحلاً له فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرم فهو من فساق المسلمين وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

وقال ابن عباس في رواية: ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلاً يضاهي أفعال الكفار. وقيل: أي ومن لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر فأما من حكم بالتوحيد و لم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل في هذه الآية. والصحيح الأول إلا أن الشعبي قال: هي في اليهود خاصة واختاره النحاس قال: ويدل على ذلك ثلاثة أشياء منها أن اليهود ذكروا قبل هذا في قوله: "للذين هادوا" فعاد الضمير عليهم، ومنها أن سياق الكلام يدل على ذلك، ألا ترى أن بعده "كتبنا عليهم" فهذا الضمير لليهود بإجماع. وأيضًا فإن اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص. فإن قال قائل: "من" إذا كانت للمجازاة فهي عامة[1].

- **ويقول الإمام ابن كثير في تفسيره:** قال السدي: ومن لم يحكم بما أنزلت فتركه عمدًا جاحدا وهو يعلم فهو من الكافرين. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال من جحد بما أنزل الله فقد كفر ومن أقر به و لم يحكم به فهو ظالم فاسق. رواه ابن جرير ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب أي من جحد حكم الله المنزل في الكتاب. وقال عبد الرزاق عن الثوري عن زكريا عن الشعبي قال: الآية للمسلمين.

وقال ابن جرير عن ابن المثنى عن عبد الصمد عن شعبة عن ابن أبي السفر عن الشعبي قال: هذا في المسلمين والظالمون في اليهود والفاسقون في النصارى. قال طاووس وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال الثوري عن ابن جريج عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق. وقال وكيع عن سعيد المكي عن طاوس قال: ليس بكفر ينقل من الملة. وعن ابن عباس قال: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه. ورواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة وقال صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه[2].

ومن الواضح هنا أن ابن كثير يقرر اشتراط الجحود بما أنزل الله أو الاعتقاد بأفضلية شرع غيره أو المساواة معه لتكفير من لم يحكم بما أنزل الله ولكن البعض يشير إلى ما قاله ابن كثير عن موضوع الياسق فلننظر ماذا قال

---

(١) انظر : "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٣/٦).

(٢) تفسير ابن كثير: ج٢ تفسير الآية ٤٤ من المائدة.

يقول الإمام ابن كثير: "أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون" ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون بها من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم. وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى عن اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل أو كثير أهـ.

فيلاحظ في كلام ابن كثير هنا أنه قال: "فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله" أي أن الأمر هنا أمر تقديم أحكام الياسق على أحكام الله وليس مجرد تطبيق أحكام الياسق وترك أحكام الله.

- ويقول الشيخ الصابوني في صفوة التفاسير:

أي من لم يحكم بشرع الله كائنًا من كان فقد كفر. وقال الزمخشري: ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينًا به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون وصف لهم بالعتو في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمردوا بأن حكموا بغيرها. قال أبو حيان: والآية وإن كان الظاهر من سياقها أن الخطاب فيها لليهود إلا أنها عامة في اليهود وغيرهم. وكل آية وردت في الكفار تجر بذيلها على عصاة المؤمنين[1].

- وفي زبدة التفاسير للدكتور محمد سليمان الأشقر:

وحكم هذه الآية لكل من ولي الحكم فحكم بغير شرع الله تعالى وهو يعلم. وقيل هو محمول على أن الحكم بغير ما أنزل الله وقع استخفافًا أو استحلالاً أو جحدًا (لا على من حكم به بالرغبة أو رشوة أو رهبة). عن ابن عباس: من جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر ومن أقر به و لم يحكم به فهو ظالم فاسق. وعن ابن عباس أيضًا ليس بكفر ينقل عن

---

(١) مج١ ص٣٤٥.

الملة، بل كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

وقال: "التقية باللسان: من حمل على أمر يتكلم به وهو معصية لله فيتكلم به مخافة الناس وقلبه مطمئن بالإيمان فإن ذلك لا يضره إنما التقية باللسان، ولا يبسط يده فيقتل ولا إلى إثم فإنه لا عذر له"[1].

---

(١) ص : ٥٣.

ثانيًا: الإيمان بالملائكة

ونؤمن بوجود الملائكة وأنهم خلق من خلق الله خلقهم الله من نور وهم عباد لله مكرمون مجبولون على الطاعة و﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾.

"فمنهم الموكل بأداء الوحي إلى الرسل وهو الروح الأمين جبريل عليه السلام ومنهم الموكل بالصور وهو إسرافيل عليه السلام ومنهم الموكل بقبض الأرواح وهو ملك الموت. ومنهم الموكل بأعمال العباد وهم الكرام الكاتبون. ومنهم الموكل بالجنة ونعيمها وهم رضوان ومن معه ومنهم الموكل بالنار وعذابها وهم مالك ومن معه من الزبانية ورؤساؤهم تسعة عشر ومنهم الموكل بفتنة القبر، وهم منكر ونكير ومنهم حملة العرش. ومنهم الموكل بالنطف في الأرحام من تخليقها وكتابة ما يراد بها. ومنهم غير ماذكر[1] ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ (المدثر: ٣١).

ومما يتناقض مع الإيمان بالملائكة إنكار أحدهم أو السخرية منه.

ونؤمن أيضًا أن الجن مخلوقات من خلق الله وبينهم الصالح والطالح وقد خلقهم الله من النار وأن إبليس يقف على رأس الطالحين منهم وإنهم يروننا من حيث لا نراهم وإنهم ليسوا بضارين من أحد إلا بإذن الله وأن كيد الشيطان كان ضعيفًا وأنه ما من أحد يستعين بهم إلا ويزداد رهقا وإنهم محاسبون مثلنا عما يفعلون.

---

(١) ٢٠٠ سؤال في العقيدة الإسلامية: ص٤١ – ٤٢ دار العقيدة – الطبعة الثانية.

ثالثًا: الإيمان بالكتب

ونؤمن بالكتب التي أنزلها الله على رسله ومنها كتب قد سماها الله ومنها ما لم يسم. والكتب التي سماها الله هي:

- التوراة التي أنزلت على موسى ﷺ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ (المائدة: ٤٤)
- الإنجيل الذي نزله على عيسى ﷺ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ (المائدة: ٤٦).
- الزبور الذي نزل على داود ﷺ ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (الإسراء: ٥٥).
- الصحف التي أنزلها الله على إبراهيم وموسى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (الأعلى: ١٨ ، ١٩).
- ونؤمن أن القرآن العظيم هو آخر كتاب أنزله الله وأنه كتاب معجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤١)
- وأنه جاء بخلاصة التعاليم الإلهية التي جاءت في الكتب التي سبقته على مر العصور ومهيمنًا ورقيبًا عليها. ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾.
- وأنه الكتاب الرباني الوحيد الذي تعهد الله بحفظه وإحصانه من التحريف الذي أصاب الكتب التي سبقته. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

وأنه رسالة الله الخالدة للعالمين الصالحة لكل زمان ومكان والتي لا يأتيها الباطل أبدًا. ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

رابعًا: الإيمان بالرسل

- ونؤمن بأنبياء الله ورسله وأن الله قد سمى في كتابه العزيز وبعض الأنبياء والرسل و لم يسم أنبياء ورسلاً آخرين لا يعلم عددهم إلا الله.

- وأن دعوة الأنبياء والرسل جميعًا هي عبادة الله وتقواه والقسط بين الناس أي توحيده وإفراده وحده بالعبودية لا شريك له والكفر بالطواغيت والآلهة المزعومة التي ما أنزل الله بها من سلطان والعدل بين الناس.

﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديد: ٢٥)

فكما يقول ابن تيمية فإن "التوحيد أصل صلاح الناس والإشراك أصل فسادهم فمن ثم فإن القسط مقرون بالتوحيد إذ التوحيد أصل العدل".

- والمسلمون لا يفرقون بين أحد من الرسل لإيمانهم بأن الحق الذي جاءوا به واحد وذلك لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ۝ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ (النساء: ١٥٠ – ١٥٢).

ومع ذلك فقد فضل الله بعضهم على بعض. ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ

﴿ ٱلْقُدُسِ ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

وأولو العزم من الرسل هم خمسة على المشهور من أقوال العلماء وهم محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام أجمعين وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ (الأحزاب: ٧).

- والرسل بشر مثلنا ينطبق عليهم ما ينطبق على سائر البشر من خصائص طبيعية ولكنهم مع ذلك صفوة البشر الذين خصهم الله بوحيه فصاروا منسارات الهداية إلى الحق و"عصمهم الله ونزههم عن الكذب والخيانة والكتمان والتقصير في التبليغ وعن الكبائر كلها والصغائر وقد يقع منهم زلات وخطيئات، أي عثرات بسيطة بالنسبة إلى ما هم عليه من علو المقامات كما وقع لآدم عليه السلام في أكله من الشجرة على وجه النسيان ولكنهم لا يقرون عليها بل يوفقون إلى التوبة منها"[1].

- ونؤمن أن الله أيدهم بالمعجزات والآيات الباهرات ولكنهم مع ذلك لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا وليست لهم قوة ذاتية مؤثرة في الكون ولا يعلمون من الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه.

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

محمد ﷺ:

- ونؤمن أن محمد ﷺ هو أفضل الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام.

- وأنه رسول الله إلى العالمين جميعًا.

﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ١)

- وأنه خاتم النبيين فلا نبي بعده.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

وقد جاء في حديث جامع متفق عليه: "فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع

---

(١) د. محمد نعيم ياسين — الإيمان: أركانه وحقيقته ونواقضه: ص ٤٩ . وانظر الفقه الأكبر لأبي حنيفة شرح الملا محمد على القاري ص٥٧.

الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلـــت الأرض لي طهـــورًا ومســـجدًا، وأرسلت إلى الخلائق كافة وختم بي النبيون".

ويتناقض مع هذا الإيمان

- الاعتقاد بأن هناك إمام من الأئمة أفضل من أحد من هؤلاء الأنبياء.
- الاعتقاد بأن هناك ولي من الأولياء أفضل من أحد من هؤلاء الأنبياء.
- الاعتقاد بأن هناك من البشر من هو معصوم مثلهم.
- الاعتقاد بأن هناك نبي آخر بعد النبي محمد ﷺ.
- سب أحد هؤلاء الأنبياء.
- الاستهزاء أو التحقير من شأن أي نبي من الأنبياء صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

خامساً: الإيمان باليوم الآخر

الروح وقبضها:

الروح سر من أسرار الله "لم يطلع عليه أحد سواه و لم يعط الإنسان الوسائل التي توصله إليه"[1].

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

فلا نستطيع أن نعرف عن الروح إلا بعض الأحوال التي أطلعنا الله عليها يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة ليست هي البدن ولا جزء من أجزائه"[2].

وإذا تعلقت الروح بالجسد سميت نفساً[3].

والنفس اللوامة والنفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء ليست ثلاثة نفوس مختلفة وإنما هي أحوال للنفس الواحدة تسمى باسم الحال الذي يغلب عليها. والروح "مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها"[4].

ومن دلائل ذلك قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ (الإنسان: ١).

وقد جاء بيان كيفية التوفي ومآل الروح بعده في حديث البراء بن عازب الطويل، وهذا نصه:

عن البراء بن عازب ﷺ: قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا

---

(١) سيد سابق – العقائد الإسلامية: ص ١٩٥.

(٢) نقلاً عن الشيخ صالح الفوزان – الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد.

(٣) راجع تفسير ابن كثير وكتاب الروح لابن القيم.

(٤) ابن تيمية – نقلاً عن الشيخ صالح الفوزان – مرجع سابق: ص ٣٠٣.

حوله كأن على رؤسنا الطير وهو يلحد له فقال: "أعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات" ثم قال: "إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، نزلت إليه الملائكة كأن على وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه فيقول: يا أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان

قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض". قال: "فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأطيب أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى".

قال: "فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربي الله. فيقولان له ما دينك فيقول ديني الإسلام. فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله. فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة وافتحوا له بابًا إلى الجنة".

قال: "فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره".

قال: "ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الذي يجيء بالخير فيقول أنا عملك الصالح. فيقول رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: "وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب".

قال: "فتفرق روحه من جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول

فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح خبيثة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الخبيث فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له".

ثم قرأ رسول الله ﷺ: "لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط" فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحًا".

ثم قرأ: "ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق" فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدري. فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري. فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فافرشوه من النار وافتحوا له بابًا الى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة". رواه الإمام أحمد وأبو داوود والحاكم وأبو عوانة وابن حبان في "صحيحيهما".

قال شارح الطحاوية: "وذهب الى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث، وله شواهد في الصحيح".

عذاب القبر:

ونؤمن بما أخبرنا به الرسول ﷺ من أن "العبد إذا نزل في قبره وتولى عنه أصحابه إنه يسمع قرع نعالهم، قال: يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة"[1].

وما أخبر به من أن المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا

(١) أخرجه من حديث البراء: أحمد برقم (١٨٧٣٣) (٦/٣٢١) وأبوداود: كتاب السنة، باب (٢٧) رقم (٤٧٥٣) (٥/٧٥) مختصرًا، والحاكم: كتاب الإيمان، رقم (١١٤)، (١/١٩٨).

أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: "لا دريت ولا تليت"[1].

بداية اليوم الآخر:

ونؤمن بأن اليوم الآخر يبدأ بنفخ إسرافيل النفخة الأولى فيصعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله تعالى ويحدث تدمير رهيب وتغيير كامل في الكون فتنشق السماء وتتناثر النجوم وتتفتت الأرض وتصبح الجبال كثيبًا مهيلاً. كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (الزمر: ٦٨).

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ (الحاقة: ١٣ – ١٦).

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم: ٤٨).

وروي أبو هريرة رضي الله ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك. أين ملوك الأرض" رواه البخاري.

البعث:

ثم تكون النفخة الثانية فيبعث الناس أرواحًا وأجسادًا ويخرجون من الأجداث فيقول الكفار والمنافقون: ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ (يس: ٥٢). ويقول المؤمنون: ﴿ مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (يس: ٥٢).

الحشر:

ويحشر الناس جميعًا الى الموقف العظيم كما خلقوا أول حفاة عراة غير مختتنين حيث "يصيب الخلائق كرب شديد" فقد روى المقداد بن الأسود عن رسول الله ﷺ أنه قال: "تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل[2] فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق منهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من

---

(١) انظر: "شرح الطحاوية" للقاضي ابن أبي العز (٢/٥٧٦).

(٢) متفق عليه.

يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، وأشار ﷺ بيده إلى فيه" صحيح مسلم.

وفي أثناء ذلك يكون أناس في ظل الله عز وجل كما أخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام، فعن أبي هريرة ﷺ وأبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل. وشاب نشأ في عبادة الله. ورجل قلبه معلق بالمساجد. ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه. ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. ورجل تصدق بصدقة وأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه. ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه" متفق عليه واللفظ لمسلم[1].

وفي هذا الهول الشديد يلجأ الناس إلى الأنبياء والرسل يستشفعون هم إلى الله أن ينقذوهم مما هم فيه ويعجل لهم فصل القضاء وكل رسول يحيلهم إلى ما بعده حتى يأتوا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ويقبل الله شفاعته.

الحساب والميزان:

ونؤمن أن كل إنسان تعرض أعماله يوم القيامة ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء: ١٣ – ١٤).

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٩).

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨).

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٨ – ٩).

---

(١) متفق عليه.

القصاص في المظالم:

وأن كل مظلمة كبيرة أو صغيرة يقضى بها يوم القيامة ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ (غافر: ١٧).

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٦٩).

وكما قال الرسول ﷺ: "أول ما يقضى بين الناس في الدماء" رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

ولا مظلمة في دينار أو درهم إلا ويقضى فيها ولذلك قال الرسول ﷺ: "من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منه اليوم فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه" رواه البخاري وغيره.

الحوض:

ونؤمن بأن الله خص نبيه وأمته بحوض عظيم طوله مسيرة شهر من شرب منه لا يظمأ أبدًا وأول من يرد عليه هو الرسول ﷺ "ثم ترده بعده أمته ويطرد عنه الكفار وطائفة من العصاة وأهل الكبائر وذلك بعد الانتهاء من الموقف بما فيه من أهوال وعرض وحساب"[1].

وقد قال الرسول ﷺ: "أنا فرطكم (متقدمكم ومرشدكم) على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ أبدًا وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم فيقول ﷺ: إنهم أمتي فيقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك. فأقول سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي" صحيح مسلم.

الصراط:

ونؤمن أن الناس برهم وفاجرهم سيمرون جميعًا على الصراط المنصوب على جهنم، وتكون سهولة أو صعوبة ذلك بحسب أعمالهم في الدنيا فمنهم من يمر فوقه ومنهم من يتهاوى في الجحيم، وبجهنم كلاليب تخطف الناس بأعمالهم. فالشقي يسقط في الجحيم والصالح يعبر فوقه إلى الجنة.

---

(١) محمد نعيم ياسين — الإيمان: ص١٠٢

الجنة والنار:

يقول الرسول ﷺ: " إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، جيء بـــالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى مناد: يا أهل الجنة: لا موت، يا أهل النار: لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حـــزنهم". صـــحيح البخاري مع فتح الباري.

سادساً: الإيمان بالقدر خيره وشره

ونؤمن بالقدر خيره وشره.

فنؤمن أن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبدًا وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق.. فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام، وطويت الصحف. كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحج: ٧٠).

وقال: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾. (الحديد: ٢٢)[١].

ونؤمن بأن "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وإنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره، ولا رب سواه"[٢].

ونؤمن أيضا أن "للعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وقدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (التكوير: ٢٨ - ٢٩)[٣].

ويناقض ذلك الإيمان:

- إنكار قدر الله خيره أو شره.

---

(١) ابن تيمية - العقيدة الواسطية (متون التوحيد): ص٢٣٣ - ٢٣٤.

(٢) المرجع السابق: ص٣٤ - ٣٥

(٣) المرجع السابق: ص ٣٥ - ٣٦.

- سب قدر الله خيره أو شره.

- الاعتقاد أن هناك إرادة في الكون يمكنها أن تفعل ما لا يريد الله أن يكون.

- التشاؤم من بعض الأشياء والاعتقاد بتأثيرها على مجرى الأحداث كرؤية الغربان أو البوم أو القطط السوداء أو أشياء كثيرة غير ذلك. لأن كل ما يحدث في هذا الوجود هو بقدر الله وحده ولذلك قال الرسول ﷺ: "الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك" قالها ثلاث مرات رواه أبوداود والترمذي وصححه الألباني.والمقصد تالطيرة التشاؤم

حقيقة الإيمان

الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان يزيد وينقص.

ونؤمن بأن الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعم بالأركان.

قال الإمام الشافعي في كتابه الأم: "كان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناه يقولون: فإن الإيمان قول وعمل ونية لا تجزئ واحد من الثلاثة إلا بالأخرى".

وقال الإمام أحمد بن حنبل: "كان القول أن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر السنة".

وقال اسحاق بن راهويه: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وهذا ما ذهب إليه أيضًا الأوزاعي بالشام وسفيان الثوري بالعراق ومالك بن أنس بالحجاز.

وقال الحافظ ابن عبد البر في كتابه التمهيد: "أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعات وينقص بالمعصية، الطاعات كلها عندهم إيمان. إلا ما ذكر عن الإمام أبي حنيفة[1].

قال الإمام ابن تيمية: "ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل. وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية"[2].

وقال الإمام ابن القيم:

واشهد عليهم أن إيمان الورى   قول وفعل ثم عقد جنان.

---

(١) أسهبنا في ذكر أقوال الأئمة الذين ذهبوا إلى أن الإيمان قول وتصديق وعمل يزيد وينقص نظرًا لمكانة الإمام أبي حنيفة الذي ذهب إلى أن الإيمان قول وتصديق بالقلب فقط ولا يزيد ولا ينقص ولكن الحق أحق أن يتبع مهما كانت مكانة من شذ عن ذلك.

(٢) العقيدة الواسطية — متون التوحيد: ص ٢٣٦.

نواقض الإيمان

القاعدة في نواقض الإيمان هي جحود ما هو ثابت بالإجماع أنه معلوم من الدين بالضرورة أو الاستهزاء أو الاستخفاف به.

وكل ما جاء من تقسيمات للعلماء في تفصيل ذلك هي مجرد مصطلحات فنية تعين على شرح هذه القاعدة الجامعة سواء ذهبوا إلى تقسيم نواقض الإيمان إلى ثلاث أو أربع أو عشرة أو أقل أو أكثر.

ويقول الإمام ابن حجر الهيتمي في شرح هذه القاعدة الجامعة في كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر:

ثم شرع في بيان تفصيلات كثيرة لهذه القاعدة التي ذكرها فقال: "وفي معنى ذلك كل من فعل فعلاً أجمع المسلمون على أنه لا يصدر إلا من كافر وإن كان مصرحًا بالإسلام، كالمشي إلى الكنائس مع أهلها بزيهم من الزنانير وغيرها، أو يلقي ورقة فيها شيء من القرآن، أو فيها اسم الله - ﷻ - في نجاسة، أو يشك في نبوة نبي أجمع عليها، أو إنزال كتاب كذلك كالتوراة أو الإنجيل أو زبور داود أو صحف إبراهيم ﷺ، أو في تكفير كل قائل قولاً يتوصل به إلى تضليل الأمة، أو تكفير الصحابة، أو الشك في مكة أو الكعبة أو المسجد الحرام، أو في صفة الحاج، أو هيئته المعروفة، وكذا الصوم والصلاة، أو استحل محرمًا كذلك، كالصلاة بغير وضوء أو استحل إيذاء مسلم أو كافر ذمي بلا مسوغ شرعي بالنسبة إلى اعتقاده، أو حرم حلالاً كالبيع والنكاح، أو يقول عن نبينا ﷺ: كان أسود أو توفي قبل أن يلتحي، أو ليس بقرشي أو عربي أو أنسي؛ لأن وصفه بغير صفته تكذيب له. ويؤخذ منه أن كل صفة أجمعوا على ثبوتها له يكون إنكارها كفرًا، كما لو جوز بعثة بعده. وقال: لا أدري أهو الذي بعث بمكة ومات بالمدينة أو غيره، أو قال: إن النبوة مكتسبة، أو أن رتبتها يوصل إليها بصفاء القلب أو يقول: الولي أفضل من النبي وأنه يوحى إليه وإن لم يدّع نبوة، أو يدخل الجنة قبل موته، أو يعيب نبينا محمدًا ﷺ ومثله غيره من

الأنبياء بل والملائكة. أو يلعنه أو يسبه، أو يستخف أو يستهزئ به، أو يلحق به نقصًا في نفسه أو نسبه أو دينه أو فعله أو يعرض بذلك، أو يسبه بشيء عن طريق الازدراء أو التصغير لشأنه، أو الغض منه، أو تمنى له معرة، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور، أو عيّر بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه، فيكفر بواحد مما ذكر إجماعًا، فيقتل ولا تقبل توبته عند أكثر العلماء، وقد قتل خالد بن الوليد ﷺ من قال له: (عند صاحبكم)، وعد هذه الكلمة تنقيصًا له ﷺ".

ثم قال ابن حجر: "أو يرضى بالكفر ولو ضمنا، كأن يشير على كافر بأن لا يسلم وإن لم يستشره... أو سؤال الكفر لغيره لأنه رضى به، أو يقول لمسلم: يا كافر بلا تأويل لأنه سمى الإسلام كفرًا، أو يسخر باسم الله ﷻ أو نبيه بأن يصغره، أو يسخر بأمر الله أو نبيه أو وعده أو وعيده كأن يقول: لو أمرني بكذا لم أفعله، أو لو جعل القبلة هنا ما صليت إليها، أو لو أعطاني الجنة ما دخلتها استخفافًا أو عنادًا، أو يقول لو أخذني بترك الصلاة مع ما في من الشدة والمرض ظلمني. أو قال ظالم لمظلومه القائل (هذا الظلم بتقدير الله): أنا أفعل بغير تقدير الله. أو قال: لو شهد عندي ملك أو نبي ما صدقته، أو لو كان فلانًا نبيًا ما آمنت به، أو قال: إن كان ما قاله النبي صدقًا نجونا... أو قيل له: قلم أظافرك فإنه سنة، فقال: لا أفعل وإن كان سنة، استهزاء، أو قال: لا حول ولا قوة إلا بالله لا تغني من جوع، ومثلها في ذلك سائر الأذكار كما هو ظاهر، أو قال: المؤذن يكذب، أو شبه صوته بناقوس الكفر، أو استخف بالآذان، أو سمى الله على محرم استهزاءً، أو قال: لا أخاف القيامة استهزاء، أو قال عن الله: لا يتبع السارق ناسبًا العجز إليه.. أو نسب الله ﷻ إلى جور في التحريم، أو لبس زي كافر ميلاً إلى دينه، أو قال: اليهود خير من المسلمين.. أو قيل له: ما الإيمان؟ فقال: لا أدري استخفافًا، أو أنكر صحبة أبي بكر، أو قذف عائشة ﷺ، لأنه مكذب للقرآن بخلاف غيرهما، أو قال: أنا الله ولو مازحًا، أو قال لا أدري حقه جحدًا للواجبات... أو قال استخفافًا: شبعت من القرآن أو الصلاة أو الذكر أو نحو ذلك، أو قال: أي شيء المحشر أو جنهم؟ أو قال: لعنة الله على العالم، إذا قصد الاستغراق لشموله الأنبياء والملائكة، أو قال: أي شيء هذا الشرع، وقصد الاستخفاف.

أو قال: إذا ظهرت الربوبية زالت العبودية وعنى بذلك رفع الأحكام، أو أنه فني من

صفاته الناسوتية إلى اللاهوتية [أي أنه أنتقل من صفته البشرية وتحول إلى الألوهية]، أو أنه يرى الله عيانًا في الدنيا أو يكلمه شفاهًا، أو أنه يحل في صورة حسنة، أو أنه أسقط عنه التكليف، أو قال: العبد يصل إلى الله ﷻ من غير طريق العبودية، أو قال: الروح من نور الله فإذا اتصل النور بالنور اتحد"[1].

(١) عن كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر المكي ج١ ص ٢٨ - ٣٠، وانظر أيضًا كلامًا قريبًا من هذا في مغني المحتاج ج٤ ص ١٣٥، ١٣٦، حاشية الباجوري ج٢ ص ٢٥٧.

محاذير هامة جدًا للحد من الشطط في التكفير

- عدم التسرع إلى تكفير العوام أو الحدثاء عهد بكفر والسعي إلى تبليغهم العقيدة بدلا من ذلك.

يقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾. وعن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء بكفر. وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: "إجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون".

وسدرة ذات أنواط: سدرة كان المشركون يعظمونها ويعلقون عليها أسلحتهم للتبرك، وما وقع الذين سألوه في هذا الخطأ إلا لكونهم حدثاء عهد بكفر أي لم يسلموا إلا من وقت قريب ولذلك علمهم الرسول ﷺ أن قولهم هذا مثل قول بني إسرائيل لموسى: "اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة" وأن موسى رد عليهم بقوله: "إنكم قوم تجهلون" وفي الحديث أيضا من دلائل النبوة الإخبار بما حدث في واقع المسلمين من انتشار هذه المفاهيم الشركية بينهم كنفس ما وقع لبني إسرائيل.

ونفس الأمر ينطبق على الداخلين في الإسلام حديثًا أو المنتقلين إليه من المذاهب والتيارات الملحدة.

ويشابه ذلك كثيرًا ما يمكن أن يصدر عن عوام المسلمين في الدول التي لا ينتشر فيها التعليم الديني الصحيح ولا يعرف هؤلاء العوام فيها عن الإسلام إلا أقل القليل.

- إن هناك كفر أكبر وكفر أصغر:

ويجب أيضا الأخذ في الاعتبار ما ذهب إليه العلماء من تقسيم الكفر إلى كفر أكبر وكفر أصغر الذي ذكرناه من قول ابن عباس: "كفر دون كفر" والمقصود بذلك أنه كفر

لا يخرج عن الملة.

وقد مثل العلماء للكفر الأصغر بالحلف بغير الله وسب الدهر وسب الريح والرياء بالإعمال الصالحة[1].

- الاحتياط في تكفير المعين:

يقول الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية:

"إن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرفة المتضمنة نفي ما أثبته الرسول أو إثبات ما نهى عنه أو النهي عما أمر به يقال فيها الحق ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص ويبين أنها كفر، ويقال: من قالها فهو كافر ونحو ذلك.

إنما الشخص المعين إذا قيل هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة، فإنه من أعظم البغي أن نشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه، بل يخلده في النار فإن هذا حكم الكافر بعد الموت.

ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدًا مخطئًا مغفورًا ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص"[2]

فإذا كان هذا هو كلام أحد أهم أئمة علم التوحيد في التاريخ الإسلامي فما بالنا نرى الجهلاء يتبارون في تكفير الناس وكأن هناك هدية وراء ذلك.

- الحذر الشديد في تطبيق قاعدة من لم يكفر الكافر فهو كافر:

من المهم جدا أن نعلم أن المقصود من تطبيق قاعدة من لم يكفر الكافر فهو كافر، الكافر المتيقن من كفره كإبليس وفرعون وهامان أو من اتفق العلماء على كفره ،وليس المقصود من ذلك أن تطبق هذه القاعدة على من هو مشكوك في كفره أو من أطلق لفظ الكفر عليه أحد العلماء دون سواه وأحجم الآخرون عن إطلاق هذا الحكم عليه ،ومن المعلوم أن عدم الأخذ في الاعتبار المقصد من هذه القاعدة قد أوقع الأمة في مصائب لا حصر لها.

---

(١) راجع الشيخ صالح بن عبد الله الفوزان.

(٢) ص ٣٥٧.

مراجع هذا القسم

- القرآن الكريم
- تفسير القرطبي
- تفسير ابن كثير
- صفوة التفاسير: الصابوني
- زبدة التفاسير: الأشقر
- تفسير البيضاوي
- صحيح البخاري
- الأربعون النووية وشرحها: للإمام النووي
- رياض الصالحين: الإمام النووي
- الإيمان — أركانه وحقيقته ونواقضه: د. محمد نعيم ياسين.
- ٢٠٠ سؤال في العقيدة الإسلامية: الشيخ حافظ بن أحمد حكمي
- معارج القبول: الشيخ حافظ بن أحمد حكمي
- العقيدة الواسطية: ابن تيمية
- العبودية: ابن تيمية
- أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية
- الإيمان: ابن تيمية
- الفتاوى الكبرى: ابن تيمية
- الصارم المسلول على شاتم الرسول: ابن تيمية

- اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية
- الفرقان بين الحق والباطل: ابن تيمية
- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: ابن تيمية
- الصلاة وحكم تاركها: ابن القيم
- الروح: ابن القيم
- الفقه الأكبر: للإمام الشافعي
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: الشيخ حسن آل الشيخ
- العقيدة الطحاوية: الإمام الطحاوي.
- شرح العقيدة الطحاوية: القاضي ابن أبي العز الحنفي
- لمعة الاعتقاد: ابن قدامة المقدسي
- التوحيد الذي هو حق الله على العبيد: الإمام محمد بن عبد الوهاب
- كشف الشبهات: الإمام محمد بن عبد الوهاب
- نواقض الإسلام: الإمام محمد بن عبد الوهاب
- تطهير الجنان والأركان عن درك الشرك والكفران: الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي
- شرح العقيدة الواسطية: محمد خليل هراس
- الولاء والبراء في الإسلام: محمد بن سعيد القحطاني
- الولاء والبراء في الإسلام: الشيخ صالح الفوزان
- منهج أهل السنة في الولاء والبراء: د. سيد سعيد عبد الغني
- الإشارة إلى صحيح الاعتقاد: الشيخ صالح الفوزان.
- حقيقة التوحيد: الشيخ محمد حسان
- الدين الخالص: محمود خطاب السبكي
- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات: محمد أمين الشنقيطي.

- شرح أصول الإيمان: محمد بن صالح بن عثيمين.
- الحد الفاصل بين الإيمان والكفر: عبد الرحمن عبد الخالق
- ظاهرة الغلو في التكفير: يوسف القرضاوي
- دعاة لا قضاة: المستشار حسن الهضيبي
- الله في العقيدة الإسلامية: الشيخ حسن البنا
- العقائد الإسلامية: الشيخ سيد سابق
- عقيدة المسلم: الشيخ محمد الغزالي
- الاقتصاد في الاعتقاد: حجة الإسلام الغزالي
- العدل قوام العالمين من كلام ابن تيمية: عبد السلام بن عبد الكريم
- الفصل في الملل والأهواء والنحل: الامام ابن حزم
- الملل والنحل: الشهرستاني
- إسلام بلا مذاهب: د. مصطفى الشكعة
- الحضارة الإسلامية: الإمام المودودي
- الإسلام النفعي: محمد إبراهيم مبروك.
- المنة شرح اعتقاد أهل السنة: دكتور ياسر برهامي.
- العقيدة الإسلامية من الكتاب والسنة الصحيحة: دكتور محمد جميل زينو.
- غاية المرام في علم الكلام: للآمدي.

القسم الثاني

منهج في بناء الشخصية القوية

هذا المنهج

يقوم هذا المنهج على تحرير إرادة الإنسان وإرساء ركائز القوة الإيجابية فيه وإدراكه بالوعى الإيجابى الحقيقى فى مواجهة الوعى الزائف المشاع وإرساء قيم المواجهة داخله، وقد قصدنا أن لا نضع هذا المنهج فى صيغة أكاديمية لا ينسجم أسلوبها إلا مع الأكاديميين، إنما قصدنا أن نوجه حديثنا إلى القارئ المقصود مباشرة بلغة تحفيزية تساعده على الاستجابة لما ندعوه إليه.

أرض الصراع

ما الذى حدث؟

ما الذى جعل الجنون أمرًا طبيعيًّا؟!

ما الذى جعل العار أمرًا سائغًا ومقبولاً لا يثير استياء أحد؟!

ما الذى جعل الضياع هو القاعدة التى يدعى الجميع أنه لا مفر منها؟!

ما الذى جعل المنطق طريدًا منبوذًا ومتهمًا بالجنون؟!

ما الذى جعل الشرف محاصرًا ومتهمًا ومطالبًا بالدفاع عن نفسه؟!

ما الذى جعل الإصرار على المضى فى الطريق المستقيم أمرًا بعيد المنال يعلن الجميع عدم القدرة على تحمل مشاقه؟!

ما الذى حدث؟

إن مجرد السقوط بدأ قديمًا ولكن السقوط الكبير بدأ من أعلى منذ أواسط السبعينيات.

سقطت البلاد فى ذل التبعية وانهيار القيم، وطفت المفاهيم النفعية الأمريكية على كل شئ حتى أننا أُصِبْنَا بقوم تجتمع فيهم كل نقائص الدنيا ومع ذلك يُرْفَعُون فيها إلى أعلى عليين لا لشيء إلا لسبب واحد وهو أنهم امتلكوا المال.

من أين امتلكوا هذا المال؟

ما القضية؟! الكل يعلم أنه من الحرام، ولكن قلة قليلة هى التى أصبح يهمها هذا الأمر، المهم أنهم امتلكوا الوسيلة التى جعلتهم يحصلون على أشياء فى الواقع يجزم العقلاء باستحالة تحقيقها بالنسبة إليهم حتى بعد أن يحصلوا عليها، بينما يعجز الشرفاء عن تحقيق أبسط الاحتياجات الضرورية فى الحياة.

لقد استطاعوا بذلك أن يرفعوا راية (لا إله إلا المال) بل استطاعوا أن يجعلوا من المال

وثنًا يُعْبَدُ من دون الله، وليست المسألة فقط عمل الإعلام الدءوب على اتساع فوهة أوعية المجتمع الاستهلاكية لكل المنتجات مهما كانت تفاهتها، وإنما المشكلة الأكبر هى عملية الإغراء المُلِحّ لشراء أشياء ترفيهية يشعر أمامها الأغلب الأعم من الشعب المصرى المطحون بمدى تعاسة حياته، ونفاذ صبره، وعدم قدرته على الاستمرار فى هذه الحياة، أضف إلى ذلك ما تصاحبه الإعلانات التى يبثها هذا الإعلام من خلاعات وإغراءات جنسية، تقوم بها فتيات رائعات الجمال قد تم اختيارهن بمهارة تجارية فائقة، وبهذا يكتمل الحلم البرجماتى الشديد الإغراء الذى تقدمه الإعلانات لمجتمعنا البسيط الضعيف التحمل لمثل هذه الإغراءات، فالحلم البرجماتى الذى تقدمه الإعلانات عبارة عن حياة غارقة فى الترف والمتع والملذات التى لا يكاد يستطيع أن يحيا مثلها إلا الملوك والأمراء وأرباب النفوذ والمال.

والناس محاصرة داخل واقع اقتصادى طاحن يرتع فيه إعلام مُوَجَّهٌ يُرَوِّجُ لقيم أمريكية نفعية (برجماتية) غازية تجعل من المنافع المقياس الوحيد للحقائق، وتجعل من المال الإله الوحيد الذى بيده حل كل مشاكل الحياة وتضفى عليه كل أثواب الفخر والعزة والكرامة والقوة والرفعة، وتجعل من الفقر قرينًا للعار والانحطاط والوضاعة، وكما جاء على لسان أحد أبطال فيلم مصرى (مفيش عار أكبر من الفقر) مفضلاً بذلك أن يُتَّهَمَ بعار الطعن فى شرف أخته على أن يُتَّهَمَ بعار الفقر[1].

لقد فقدت الحياة معانيها الجميلة وأصبح الضلال سيدًا مُهَابًا يمضى مزهوًّا فى الشوارع ويلقى من الناس الإجلال والتقدير والاحترام.

أيهما سيُحْتَرَمُ وأيهما سيُزْدَرَى؟ شرف مع الفقر أم عار مع الغنى؟..

إن الناس لن تهتم فى الأمر إلا بالغنى.. ولن تعد هناك أهمية بعد ذلك للتفرقة بين الأمرين: الشرف أم العار!!!

قيم تنفر لكل الأشياء ما دامت تمر.

لتكن حياتك كلها تمثيلية مزيفة كبيرة... ليكن واقعك كله كذب فى كذب.

لتعش حياتك فى ضياع كامل، وَتَعِ جيدًا أن مَالَكَ حرام فى حرام، وأنك محاط بالعار من كل اتجاه، وأنه لا استقرار لك، وأنك قد فقدت الإحساس بكل متع الحياة، بل

(١) حسين فهمى فى فيلم (العار).

وفقدت القدرة على أن تكون لك أى رغبة حيوية من رغبات الحياة، وأنه لا مستقبل لك، وأنك مهدد بالانهيار التام فى أية لحظة.

كل هذا ليس مهمًّا.

لا تجهد نفسك فى البحث عن أى حل ينقذك من هذا الضياع.

ولكن ابحث عن شئ واحد.

ابحث عن أية وسيلة تبرر لها كذبك.. ابحث عن أية وسيلة تستمد منها المزيد من الكذب والزيف اللَّذَيْنِ تستطيع بهما أن تتستر على واقعك وضياعك.

ابحث عن أية وسيلة تستطيع بها أن تكسب ولو القليل من الوقت الذى يؤجل وقوع انهيارك حتى ولو كان ثمن هذا التأجيل أن يكون الانهيار أكبر وأفدح ولا علاج له على الإطلاق.

افعل أى شىء ليس هذا هو المهم.

المهم هو شىء واحد.. هو أن تمر الأمور، هو أن (الحكاية تعَدّى)، هو أن يكون هناك مبررات - أية مبررات - للاستسلام والضياع والانهيار.

هذه هى القيم (البرجماتية) الجديدة بعد تفاعلها مع واقعنا المصرى.

لا حق ولا باطل ولكن المنفعة هى المعيار الوحيد لكل الأشياء.

المال هو الإله الوحيد.

الحفاظ على البرواز الاجتماعى هو أهم شىء فى الحياة.

ليس من المهم إنقاذ الأمور ولكن المهم التبرير والتمرير، ولكن المهم امتلاك القدرة على جعلها تَمُرُّ (والحكاية تعَدّى) والاستعانة فى سبيل ذلك بأكبر قدر من المبررات والكذب والزيف.

اختزال المفاهيم

لم تعد المفاهيم التى يعقلها الناس عن الأشياء كما كانت من قبل فقد أغارت البرجماتية على كل شىء وأعطته مفهومه النفعى الجديد واختزل الكمبيوتر البرجماتى القيم الأصيلة المُسْتَمَدَّةَ من ديننا الحنيف إلى قيم جديدة تتوافق مع العبث البرجماتى وانتهازيته.

فالواقعية صارت تعنى الاستسلام للأمر الواقع.

والحق والصدق صارا يعنيان التبرير والتمرير.

والإخلاص صار يعنى قصد العبودية للمال لا غيره.

أما الكرم فهو قرض مؤقت مشروط بالسداد بأعلى الأرباح.

والتضحية صارت تعنى البذل من أجل تحقيق أقصى المنافع.

أما الحب فهو جنس ولذة.

والصداقة شركة نفعية قابلة للتغيير والتبديل.

والأمان هو النوم على سرير من المال بأية طريقة.

والحكمة هى القدرة على تكديس الثروات واستغلالها.

والنجاح هو تحقيق أكبر رصيد متراكم من الأموال.

والشجاعة تهور.

والثقافة جنون لا معنى له.

والإسلام هو كل ما لا يتعارض مع المصالح والمنافع، إن لم يكن هو كل ما يساعد على تحقيقها.

والحياة كلها هى مجموعة من الرغبات المادية المفرغة من العواطف والشعور

والأحاسيس الإنسانية.

أما الكذب فهو فن لا يتمتع به إلاّ الأذكياء.

والخيانة واقعية.. والنفاق لباقة.

والنصب والسرقة والرِّشْوَة والاختلاس والاستغلال شطارة ومهارة يقتضيها العصر.

والجبن حلم.

واحتقار الفقراء رفعة.

واستغلال أزمة المتأزمين ضرورة.

وهكذا اختزلت باقي القيم والمفاهيم.

هل الإسلام ضد المنفعة؟

قد يصرخ فينا معترض فيقول: ما كل هذا الضجيج المفتعل حول المنفعة؟ أليس من الطبيعي جدًّا أن يحرص كل إنسان على ما ينفعه ويسعى إليه ويدفع عن نفسه كل ما يضره؟ أليس الإسلام ذاته يحرضنا على أن يحرص كل منا على نفسه؟ ومن الذى قال إن الإسلام ضد المنفعة؟

إن الرد على كل هذه التساؤلات يتركز فى أمر واحد هو: نعم إن الإسلام يوجهنا إلى نفع أنفسنا، ولكن بأى مفهوم للمنفعة؟ إنها المنفعة التى يحددها لنا الإسلام، فالنافع هو ما يحدد الإسلام أنه نافع، وليس ما يحدده أى تصور أو مذهب آخر.

فالشيء النافع للإنسان فى الإسلام يكون محددًا بانطلاقه من التصور الإسلامى للوجود، ومن الشرائع والقواعد التى وضعها الإسلام لاستخلاف الله الإنسان فى الأرض، وإعلاء عبوديته فيها والتى تعمل على تنظيم المنافع والمصالح بين البشر.

وهذا فليست المنفعة فى الإسلام يترك تحديدها لمذهب أو هيئة أو سلطة أو لرأى أى شخص من الأشخاص مهما كانت درجته من العلم أو الفكر، كما أنه لا يترك تحديدها لكل إنسان على حدة كما يتهيأ لهواه فيترك الحبل على غاربه للصراعات والانتهازيات.

فالحق فى الإسلام هو الذى يحدد المنفعة، والسعى إلى الحق هو غاية النفع ذاته، تتحدد على أساسه باقى المنافع.

تدمير الإنسان

لقد حطم البرجماتيون كل أحلام الشباب وكل آمالهم بل وأبسط حقـوقهم الشـرعية، وأحالوها إلى صراخ داخلي يظل يستنـزف إرادة الإنسان وكبريائه حتى يسـلبه صـموده ليقف فى النهاية يراقبهم فى استسلام كامل بلا حياة، بينما هم يستهلكون حياة البشر أمثالـه ويصير أقصى أمل له هو أن يقبلوه بمجرد أداة بسيطة يضعوها حيث يشاءون، قد تكون هـذه الأداة هى مجرد وقود لتشغيل ماكينات مصانعهم التى تنتج التفاهات، أو قد تكون مجرد حلقة صغيرة فى سلسلة أنشطتهم غير الشرعية التى تمتص دماء الملايين أمثاله، أو قد تكـون مجـرد حافز منشط على الاستمتاع والتسلية.

إن الأمر يبدأ برغبة مشروعة جدًّا فيحدث الصدام فيحدث العجز فيحدث الإحبـاط فتحدث الكآبة فيحدث الركود المدمر لنفسية الشاب وبنيته الداخلية.

وكيف يكون موقف الإنسان عندما يرى أن كل هذه الأوضاع برغم بشاعتها هى التى تسود وأن كل النوايا النبيلة لا تكاد تصنع شيئًا، وكيف لا يقف الضعفاء موقف العجـز والاستسلام وهم يرون المبادئ والمثل والقيم العليا تُهْرَسُ تحت عجلات النفعيين المادية التى تهزأ بالشرف والعقيدة، ويرون النافع المتمثل فى المال والثروة هو السيد القادر المُطَّاع الذى له الرهبة والصولة والجاه والسلطان، واحترام الناس وتوقيرهم وتقديرهم وانبهارهم، بـل وتقديسهم، وله الحكمة القادرة على تنفيذ ما تقول، وعلى النقيض من ذلك يرون الشرفاء يتآكلون تحت وطأة الفقر والقهر واحتقار الناس لهم.

وكيف لا يقف الضعفاء موقف العجز وهم الذين لم يتحصنوا فى يوم من الأيام بالعقيـدة الراسخة والدين المتين والرؤية الإسلامية القوية لحقائق الوجود، والاسـتعلاء علـى الماديـات التافهة الفانية، والشوق والحنين إلى الخلود.

كيف لا يقف الضعفاء موقف العجز وقد غُيِّبَ دينهم على امتداد عقود طويلة ولم يبق منه

إلاَّ هامش سطحى مزيف لا يستطيع الصمود أمام قوى المفاهيم البرجماتية الزاحفة المنتصرة.

وكيف لا يقف الضعفاء موقف العجز وهم الذين كانوا ضحايا مطامع البرجماتيين الاستهلاكية البشعة للبشر، وعجز كل المقولات المثالية غير الواقعية عن استنقاذهم من بين براثن هؤلاء البرجماتيين.

إنك حتى لو حاولت أن تثبت لهؤلاء صحة مفاهيم أخرى تختلف عن المفاهيم البرجماتية (أى: النفعية) فلا بد أن تثبت لهم قدرة هذه المفاهيم على قهر المفاهيم البرجماتية عمليًّا، وأن تثبت لهم جدواها المادية بالمقارنة بجدوى المفاهيم البرجماتية المادية، أى: إذا أردت أن تدعو هؤلاء إلى مفاهيم صحيحة، فلا بد أن تثبت لهم أن هذه المفاهيم نافعة بالمفهوم المادى للمنفعة، أى: أن هؤلاء الضعفاء العاجزين هم أنفسهم قد تشكلت عقولهم بطريقة برجماتية (نفعية) وترسخت فى نفوسهم نفس المفاهيم النفعية المنسلخة عن كل المبادئ والقيم الإنسانية.

لقد أدت البرجماتية إلى انسلاخ الإنسان من كينونته الإنسانية وتفريغه من الحس والشعور والعواطف وكل ما يتعلق بكيانه كإنسان ويميزه عن الحيوان أو الجماد، ثم تحوله إلى مجرد ترسٍ جامد الشعور فى ميكنة الحياة العصرية التى صممها البرجماتيون.

والنتيجة أن كل الأشياء تقع الآن، حتى الإنسان فإن أجزاءه تتساقط جزءًا جزءًا والجزء الباقى يتجمد، يُفَرَّغُ من المشاعر والأحاسيس، يُفَرَّغُ من كينونته كإنسان، ويصبح خامة صالحة للغاية للصب فى القوالب الجاهزة التى يصممها النفعيون كآلات صغيرة فى ماكينة الحياة النفعية.

قد لا يكون الإنسان فى الأصل ماديًّا ولكنه قد يسقط فريسة فى أنياب الماديين التى لا ترحم، وعندما يجد نفسه كذلك.. عندما يجد الآخرين لا ينظرون إليه إلا على أنه سلعة، ويُلْقِى كل شعور أو أحاسيس لديه فى محرقة أطماع الآخرين فيه.. عند ذلك ما الذى من الممكن أن يعنيه لديه أى شىء من القيم إذا كانت حقيقة ذاته نفسها اُخْتُزِلَتْ إلى قيمة مادية؟ فهل هناك شىء فى العالم يمثل لديه أية قيمة بعدها؟

نعم لن تبقى لديه قيمة لشىء فى الوجود إلا القيمة المادية، ليس هذا بناءً على طمع لديه ولكنه يمثل لديه حقيقة واقعية منطقية فرضتها عليه تجربته القاسية.. إذن فلا غرابة عند

ذلك إذا صارت الضحية ذئبًا، تُعامل الآخرين بنفس المنطق المادى الذى فرض عليها.

أنا لا ألتمس هنا للضحية عذرًا فـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (المدثر: ٣٨)، ولا عذر لأحد غير عدم الإرادة، ولكن ألتمس تفسيرًا لما يحدث، ولكى يكتمل هذا التفسير أقول: إن هذا الانسلاخ الذى حدث للضحية حتى تصير ذئبًا لا يكون إلا بالنسبة للأشخاص الضعيفة المستسلمة التى إذا دفعتها الظروف إلى الانزلاق فى هاوية فإنها تستسلم لها تمامًا دون أن تحاول مقاومة هذا الانزلاق والوقوف بكل استماتة عند نقطة معينة فيها، أو تحاول أن تبدأ منها الخروج من تلك الورطة التى دفعتها الظروف إليها.. أقول: تستسلم لها تمامًا حتى تصل إلى القاع الحتمى فى النهاية.. قاع الانسلاخ من عالم القيم إلى عالم المادة والأرقام بكل قسوته وصرامته وجفائه البشع.

أى أن الذى أريد أن أقوله هنا: إن جريمة الإنسان الأساسية – الذى سقط فريسة للآخرين– ليس فى كونه قد تحول إلى ذئب، ولكن جريمته الأساسية فى ضعفه واستسلامه للآخرين يفعلون به ما يشاءون ويختزلون عقله ووجوده إلى وعى معين يخدم أهدافهم.

وهل الضعف والاستسلام جريمة؟

هل الضعف والاستسلام شيئًا إراديًا نحاسب عليه؟

أقول: نعم...

الضعف والاستسلام جريمة يجب أن نُحَاسَبَ عليها؛ لأن الضعف والاستسلام يعبِّران عن الخواء الداخلى للإنسان، يعبِّران عن فقدان الإنسان لركائز القوة الحقيقية وتهاونه فى عدم العمل على إقامة دعائمها فى نفسه.

وما هذه الركائز إلا ركائز الإيمان، أى: أن ضعف الإنسان الشخصى هو تجسيد لحقيقة ضعف إيمانه الداخلى، فإذا استسلم الإنسان للأمور، وإذا تمادى فى سقوطه إلى النهاية حتى ولو كانت الظروف قد أرغمته على السقوط فى بداية الأمر فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه؛ ولذلك فهو مسئول عن ذلك الضعف والاستسلام والتمادى فى السقوط.

قالت فتاة أمامى:

لا أعرف إذا لبست فستانًا جميلاً فما قيمة كل الفساتين الأخرى كى أضعف أمامها، لا

أعرف إذا كنت قد أكلت طعامًا شهيًّا فما قيمة كل طعام العالم بعد ذلك كى أضعف أمامه.

إن ما قالته صادق تمامًا، ويمكن أن يقاس عليه كل الأمثلة الأخرى التى تشبهه.

فإذا كنت أسكن بيتًا كريمًا فما قيمة كل قصور العالم كى أضحى بذاتى من أجلها؟!...

وإذا كنت أركب سيارة جيدة فما قيمة أفخم ناقلات العالم كى أضحى بذاتى من أجلها؟...

وهكذا.. وهكذا...

نعم، إن هذا الموقف صادق تمامًا وحقيقى إلى أقصى حد، ولكن هذا الموقف يتناول مستوى معين للقضية المطروحة دون المستويات الأخرى، إنه يتناول موضوع الإغراء المادى من حيث كونه متعة يتمتع بها الإنسان، ولكن هناك مستوى آخر للقضية أخطر كثيرًا من هذا المستوى يتعلق بما تمثله هذه المادة من عون على الاستعلاء.. على الاستكبار فى الأرض وذلك لقدرتها الخارقة فى التأثير على الآخرين خصوصًا عندما تمثل ترمومترًا اجتماعيًّا لتقدير قيمة الإنسان فى مجتمعات مثل مجتمعاتنا الساقطة فى هوة سيادة المفاهيم النفعية (البرجماتية).

أقول: عند هذا المستوى الخطير يكون ابتغاءً المال ليس فى الحقيقة ابتغاءً للمتعة فى الأساس، ولكنٍ ابتغاءً للعلو فى الأرض، ابتغاءً لإرضاء رغبة الإنسان فى العلو والسيادة على الآخرين، ابتغاءً فى امتلاك مسوغات التكبر فى الأرض.

هذه هى حقيقة القضية التى يضحى الإنسان بذاته من أجلها.

ما هذا المنطق؟!

أيضحى الإنسان بذاته من أجل إرضاء ذاته فى التكبر؟!

أقول: ليس هناك تناقض فى ذلك: هو يضحى بما هو حقيقى وَسَامٍ وربانىٌّ فى ذاته من أجل ما هو أنانى وشيطانى فيها وهو رغبتها فى التكبر والاستعلاء على الآخرين.

نعم إنه...

الجريمة الأولى والكبرى فى هذا الوجود جريمة الشيطان حين قال: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف: ١٢) تلك الجريمة التى لم يعد أحد يتعرض لها- فى غير النادر- إلا كموضوع تقليدى لا يحتاج إلى عظيم اهتمام أو شرح.

ما هى الشخصية القوية

نستطيع الآن أن نتحدث عن مفهوم الشخصية القوية فى الإسلام ومن ثَمَّ عن وسائلنا فى صنعها واقعيًّا.

ولكن قبل أن نتطرق إلى ذلك لا بد أن نتحدث عن مفهوم الشخصية القوية بوجه عام، وسوف نحتكم فى ذلك (وهو ما سنفعله فى كثير من الأمور التى تثير جدلاً كبيرًا فى عالم النفس) إلى خبرات القارئ الواقعية.

ما هى الشخصية القوية؟

هل هى الشخصية التى تربح دائمًا؟

هل هى الشخصية التى تصل إلى ما تريد بشتى الوسائل؟

هل هى الشخصية التى تميل إلى الخير؟

هل هى الشخصية التى تميل إلى الشر؟

هل هى الشخصية التى تقود؟

هل هى الشخصية التى تصر على ما تريد مهما كانت الخسائر؟

هل هى الشخصية العنيفة؟

هل هى الشخصية الهادئة؟

نستطيع أن نثبت – لو أردنا الإطناب – من خلال تجاربنا الواقعية أن أى سمة من السمات السابقة لا تستطيع أن تحدد لنا ما هى الشخصية القوية.

ولكن هناك أمر أساس يستطيع أن يحدد لنا الشخصية القوية، وهو القدرة على اتخاذ القرار؛ لأن هذا يعنى قدرة النفس على التحكم فى اتخاذ قرارها، أى: سيطرتها الدائمة على توجيه سلوكها إلى ما تريد تحقيقه دون أن يرتبط ذلك بتحقيق المكاسب أو الخسائر.

قد يخسر الإنسان أشياء نتيجة اتخاذه لموقف معين، ولكن مع ذلك تكون مكاسبه أكبر، وهى تتمثل فى تدعيم قوة تحكمه فى اتخاذ قراره.

ونحن نخصص فى هذا الكتاب فصلاً كاملاً عن مدى الأهمية العظمى لحرية الإرادة فى الإسلام، ويحضرنا الآن تلك المقولة التى تنسب للسيد المسيح عليه السلام: "ماذا لو كسب الإنسان العالم وخسر نفسه؟".

ابنان لرجل ثرى، هذا يتحكم والده فى توجيه مسار حياته تمامًا ويغدق عليه الأموال فى مقابل ذلك، وهذا اختار أن يملك زمام نفسه فى توجيه مسار حياته، حتى ولو أدى ذلك إلى ألا ينال من ثروة أبيه إلا الفتات. أيهما الأقوى شخصية؟!.

هذه فتاة قذفت بها أمها فى بوتقة رجل ثرى لا خُلُقَ له، وآثرت السلامة كى تنجو من بطش أمها بها وتعريضها لما يجرح شخصيتها، وعاشت فى ترف من النعيم ورغد العيش دون أن يفترق وجودها عن وجود أى قطعة أثاث من أملاك هذا الرجل الثرى، وهذه أخرى اختارت ألا تتزوج إلا من تريد، وارتضت فى سبيل ذلك أن تجذب من رأسها وتسحل على الأرض، أيهما الأقوى شخصية؟! هل التى حافظت على (برستيجها) وضحت بحرية إرادتها، ومن ثَمَّ خسرت حياتها؟! أم التى تشبثت بحرية إرادتها، وارتضت فى سبيل ذلك التضحية (ببرستيجها) وتحمل آلام المهانة والضرب؟!

لا شك أن الشخصية الأقوى هى الشخصية التى حافظت على حرية قرارها.

والخلاصة من كل ما سبق أن المفهوم العام للشخصية القوية أنها الشخصية التى تتحكم فى اتخاذ قرارها أيًا كان اتجاهه.

وعلى ذلك فقد تكون هذه الشخصية خيِّرَة إذا كان اتجاه قراراتها يتجه عادة نحو الخير، أو شرِّيرَة إذا كان اتجاه قراراتها يتجه عادة نحو الشرّ.

ولكننا لا بد أن نضع معيارًا معينًا للشخصية القوية التى تنطلق من التصور الإسلامى.

قلنا فيما سبق: إن وجود قيم خيريَّة شديدة القوة والثبات داخل النفس الإنسانية يجعل تحكم النفس فى رغباتها شديد القوة، فلو أضفنا إلى ذلك أن تثبيت الإنسان بالحفاظ على حريته فى اتخاذ قراراته يمثل بذاته قيمة خيريَّة عظمى من المنظور الإسلامى لانتهينا إلى النتيجة الآتية:

أن الشخصية القوية من المنظور الإسلامى هى الشخصية التى تملك القدرة على التحكم فى اتخاذ قراراتها، والحفاظ على حرية إرادتها، وهى لن تملك هذه القـــدرة إلا إذا كانـــت تمتلك القدرة على التضحية برغباتها المادية والاستعلائية، وتحتوى داخلها على قيم خيريَّـــة شديدة القوة والثبات.

وعلى ذلك يكون منهاجنا فى بناء هذه الشخصية يقوم على تدعيم مبدأ حرية الإرادة[1] كقيمة إسلامية عظمى، وباعتبارها الأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان. فكيف يهون لديه التفريط فيها؟!!!!

وعلى تقوية النفس الإنسانية بتثبيت أكبر قدر من القيم الخيريَّة التى تنطلق من المنظـــور الإسلامى داخلها.

وعملية البناء هذه ليست بالأمر السَّهل أو الهيِّن، وإنما هى تتم بإعداد طويـــل وجهـــاد طويل على حمل القيم الإيمانية، ومواجهة الواقع بها، بل وعلى العمل على الـــتحكم فيـــه وتوجيهه.

وسوف نتناول الكثير من المواد التى تدخل فى عملية البناء هذه فى الفصول القادمة بإذن الله.

* * *

(١) راجع فصلى حرية الإرادة والقضاء والقدر فى هذا الكتاب.

أولاً : حرية الإرادة

١- التفريط فى حرية الإرادة
خيانة للأمانة التى حمّلها الله للإنسان

التفريط فى الإرادة خيانة لله ﷻ

يقول الله ﷻ فى كتابه العزيز:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢).

ما هى أقوال المفسرين فى تفسير هذه الآية؟

عند الدكتور الحمصى (مفردات القرآن تفسير وبيان):

العقل المفكر وحرية الإرادة.

وفى تفسير الإمام البيضاوى: "ولمّا خلق الله هذه الأجرام قال لها إنى فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعنى فيها ونارًا لمن عصانى، فقلن: نحن مسخرات على ما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغى ثوابًا ولا عقابًا، ولمّا خلق آدم عرض عليه مثل ذلك فحمله، فكان ظلومًا لنفسه بتحمله ما يشق عليها، جهولاً بوخامة عاقبته، ولعل المراد بالأمانة العقل والتكليف".

وفى تفسير الإمام ابن كثير:

"قال ابن عباس: يعنى بالأمانة الطاعة، عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها، فقال لآدم: إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذها بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال إن أحسنت جُزِيتَ، وإن أسات عُوقِبْتَ فأخذها آدم فحملها".

وبعدما عرض الإمام ابن كثير عدة أقوال لمجاهد والضحاك والبصرى وأُبَىٍّ بن كعب وقتادة وزيد ابن أسلم مثل كونها الفرائض والحدود قال: "وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر".

وفى المصحف الميسر (تفسير الشيخ عبد الجليل عيسى):

"الأمانة المراد بها هنا: الصفات التي ميَّز الله بها الإنسان عن غيره وكانت منشأ تكليفه بالطاعات ليتميَّز من يشكره عليها فلا يستعملها إلا فيما يرضى الله، وهذه الصفات هي مجموع العقل المفكر، المستنتج وحرية الإرادة" أ.هـ.

والذى نستخلصه من كل هذه الأقوال أن مناط التكليف هو كل القوى المفكرة لدى الإنسان، والتى يتميز بها عن غيره من المخلوقات، ولكن أين يتحدد أساسًا مناط المسئولية على هذا التكليف بين هذه القوى.

إنه يتحدد أساسًا فى الإرادة، فحرية الإرادة لدى الإنسان هى مناط مسئوليته أمام الله رب العالمين.

إذن فحرية الإرادة هى المحور الجوهرى فى الأمانة، الذى من أجله أَبَتْ السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، إنها أخطر شىء فى هذا الوجود يحمله الإنسان، إنها الشىء الذى على أساسه انتظمت مسيرة الوجود من حياة لموت لحياة لثواب وعقاب وجنة ونار فكيف يفرط الإنسان فى هذا الشىء؟!

كيف يفرط الإنسان فى حرية إرادته؟!! ما الذى يجعله يساق كالشياه للذبح أو حتى للكلأ الوفير؟!؟!..

كيف يرتضى الإنسان التفريط فى إرادته؟!! وهل هناك شىء فى الوجود يستحق أن يفعل ذلك من أجله؟!؟!..

من أجل ماذا؟! من أجل من؟!

نعم الصالحون يشترون آخرتهم بدنياهم والطالحون يشترون دنياهم بآخرتهم.

أمَّا المُسَاقُونَ التبعاء الذين يفرِّطُون فى إرادتهم فإنهم يُهْدِرُونَ دينهم ودنياهم معًا بماذا؟!! باللاشىء!!!!...

وفى هذا قال القدماء: أكثر الناس غُرْمًا من يبيع أخراه بدنيا غيره، والذين فرطوا فى إرادتهم وانساقوا وراء غيرهم فقد أضاعوا آخرتهم و لم يصيبوا دنياهم، وإنما الذى أصابها هم هؤلاء الذين انساقوا وراءهم.

هل يكون هذا حقيقيًا الذى يبرِّر به البعض موقفهم أنهم يضحون بإرادتهم من أجل إنقاذ الآخرين؟!

فإذا كانت حرية الإرادة هى المحور الجوهرى فى الأمانة التى حمَّلها الله للإنسان أفلا يكون المفرط فى إرادته خائنًا لله ﷻ؟!! وأى ضلال هذا؟!!

هل من الممكن أن يكون الضلال سبيلاً لإنقاذ الآخرين؟!!

إن الله لم يطلب أبدًا من الإنسان التفريط فى إرادته فى سبيل أى شىء فى هذا الوجود، إنما الأمانة التى حمَّله على أساسها مسئوليته فى الحياة الدنيا، فهل من الممكن أن تكون هناك مثالية تغضب الله وترتضى طريق الشيطان؟!! أم أن ذلك مجرد ادعاء يدعيه الضعفاء لتبرير ضعفهم.

وما تلك المكاسب التى من الممكن أن أسديها للآخرين والتى يمكنها أن تكافئ تلك الخسائر التى تصيبهم بتقديمى القدوة لهم فى خيانة أمانة الله بتفريطى فى حرية إرادتى؟!

ما المكاسب التى من الممكن أن أسديها للآخرين والتى من الممكن أن تكافئ تقديم نفسى لهم كنموذج رائع للشخصية الضعيفة السلبية عديمة الإرادة.

أيها الإنسان يا سيد المخلوقات:

لقد حمَّلَكَ الله الأمانة التى أبت أن تحملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها وارتضيت حملها، فإذا أردت أن تخسر دنياك وآخرتك من أجل دنيا يصيبها الطواغيت الذين ترهبهم وتتخاذل أمامهم ففرط فى إرادتك ثم لا تلومَنَّ إلا نفسك.

* * *

٢- القضاء والقدر
وحرية الإرادة

القضاء والقدر وحرية الإرادة

الإيمان بالقضاء والقدر فى الإسلام هل هو مصدر قوة أم مصدر ضعف؟!

الحقيقة التى لا شك فيها أن الإيمان بالقضاء والقدر فى الإسلام هو مَعِينٌ لا ينضب لاكتساب الإنسان القوة الفولاذية التى يستطيع بها مواجهة الدنيا وما فيها من المصائب والشدائد والابتلاءات، ومع ذلك فقد اختزلته المفاهيم المشاعة المتوارثة والدخيلة المأخوذة عن العقائد والفلسفات الاتكالية القديمة إلى مجموعة من المفاهيم التى تنحى بالإنسان إلى السكون والضعف والدَّعَة والاتكالية والسلبية والرضوخ للأمر الواقع بدلاً من أن تدفعه إلى العمل والقوة والتحدى والتصميم والمواجهة كما هى حقيقة الإيمان الصحيح بهذه العقيدة فى الإسلام.

* * *

علم الله ومصير الإنسان

ولنبدأ بهذه القضية:

يقولون إنه إذا كان الله جل وعلا هو علام الغيوب، وإذا كانت مصائرنا وأعمالنا مكتوبة لديه، وعلم الله ﷻ يَجلُّ عن الخطأ، وما دام مكتوبًا فلا بد أن ينفذ. فما فائدة العمل إذن؟ وما فائدة الأخذ بالأسباب أو السعى إلى الأهداف أو اتخاذ المحاذير ما دام لن ينفذ فى النهاية إلا ما كتبه الله علينا؟

نقول: إن البعض يهوى الاعتقاد بهذا التلبيس الشيطانى ليبرِّرَ سلبيَّته واتكاليته؛ لأن قضية علم الله بما يحدث أو نفعل ليس لها علاقة بالتدخل فى توجيه أفعالنا أو إحباط إرادتنا.

والمثل الذى يُضْرَبُ على ذلك شديد الوضوح - ولله المثل الأعلى: هَبْ أنك تقوم بالتدريس لبعض الطلبة فمن الطبيعى أن خبرتك الطويلة فى التدريس معهم ومع غيرهم تجعلك إلى حدٍّ كبير تستطيع أن تتوقع الدرجات التى سوف يمكنهم الحصول عليها عند دخولهم الامتحان.

هب أن صديقًا لك تحدَّاك فى ذلك فسجَّلت له توقعاتك تلك فى ورقة مكتوبة وجاءت النتائج إلى حد كبير مقاربة إلى هذه التوقعات.

فهل أنت تدخَّلت بما فعلته فى سلوك أى منهم عند أدائه للامتحان؟ هل يستطيع أحدهم أن يتحجج بك ويقول إن توقعات الأستاذ هى التى حدَّدت لنا النتيجة ونحن لا إرادة لنا فى ذلك؟! طبعًا لا يستطيع.

هذا مع الفارق العظيم أنك سجَّلت توقعاتك بعلمك المحدود، ولذلك فسوف تتطابق مع النتائج بشكل متقارب، أمَّا علم الله اللامحدود الذى لا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء فلن يحدث فى الدنيا شىء يخالفه، فهذا أمر لا يجوز فى حق الله المتصف بالكمال ﷻ.

مشيئة الله ومشيئة الإنسان

إن تساؤل الإنسان حول مدى حريته فى هذا العالم ومدى ما يتمتّع به من قدرة وحرية اختيار أمام القضاء والقدر يجعله يطرح دائمًا هذا السؤال المصيرى:

ما هى المشيئة التى تقرر السلوك الإنسانى: هل المشيئة الإلهية هى التى تقرر هذا السلوك الإنسانى بشكلٍ حتمىٍّ ومن هنا تنتفى الإرادة الإنسانية وتنعدم الحكمة من التكليف والثواب والعقاب؟ أم أن مشيئة الإنسان لها الحرية المطلقة فى هذا الوجود ومن ثَمَّ يثور التساؤل عن معنى المشيئة الإلهية؟

فى الحقيقة فإن الآيات التى وردت فى القرآن الكريم قد قررت المشيئة الإنسانية للإنسان فى تقرير أفعاله فى نفس الوقت الذى ربطت فيه هذه المشيئة بالمشيئة الإلهية، كما جاء فى قوله تعالى:

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ (المدثر: ٥٤- ٥٦).

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الإنسان: ٢٩- ٣٠).

فهذه الآيات تقرر الحقيقتين التاليتين:

١- إن كل عبد مرهون اختياره لأفعاله بمشيئته، وعلى ذلك يكون ترتيب مسئوليته عن ذلك الاختيار هو تحقيق لعدل الله ﷻ.

٢- إن هذه المشيئة التى يشاءها الإنسان مشروط تحقيقها قبل كل شىء بتحقق المشيئة الإلهية أولاً، أى: أن المشيئة الإنسانية لا تستطيع أن تتحرك إلا إذا منحتها المشيئة الإلهية هذا الحق فى التحرك، أى: أن المشيئة الإنسانية تتحرك فى النطاق الذى تمنحه لها المشيئة

الإلهية، ويمكن تفسير ذلك كالتالى:

إنه قبل أن يُصْدِرَ الفعل أو يُحَدِّدَ الإنسان السلوك الذى يختاره فإنه يسبق ذلك أولاً الإرادة الإلهية.

فالإرادة الإلهية هى التى تمنح الإنسان إمكانية صدور الفعل، ومعنى إمكانية صدور الفعل هو أن يهئ الله للإنسان الظروف والوسائل التّامّة التى يمكنه من خلالها إصدار الفعل أو عدم إصداره.

فإرادة الله هى التى تهئ للإنسان هذه الإمكانية، فلا يستطيع الإنسان أن يُصْدِرَ أى فعل إلا إذا ملك هذه الإمكانية، وعلى ذلك فإن الله إذا هيأ للإنسان هذه الإمكانية فإن أى فعل يُصْدِرُهُ يكون ناتجًا عن الإرادة الإلهية أولاً أيًا كان هذا الفعل خيرًا أم شرًّا؛ لأنه لو لم يكن الله قد شاء مَنْحَ الإنسان هذه الإمكانية ما كان ليستطيعَ أن يُصْدِرَ أى فعل، وبذلك لا يكون أى فعل يُصْدِرُهُ الإنسان إلا ناتجًا عن هذه الإرادة الإلهية ولا يستطيع أن يخرج عنها.

ويقول آخر: فلو لم يشأ الله أن يمنح الإنسان هذه الإمكانية لصدور الفعل ما كان ليملك أن يُصْدِرَ أى فعل حيث لا يكون هناك مجال أصلاً لذلك.

وعلى هذا لا يكون أى فعل يُصْدِرُهُ الإنسان إلا بإرادة الله ومشيئته أولاً ثم تأتى بعد ذلك إرادة الإنسان ومشيئته.

وهذه الإمكانية من الظروف والوسائل التى يمنحها الله للإنسان أمام أمر معيَّن لا تُحَتِّمْ على الإنسان إصدار أى فعل معيَّن أو أى سلوك خاص من خيرٍ أو شرٍّ.

بل يكون أمامه بعد أن مَلَكَ هذه الإمكانية أن يُصْدِرَ أى فعل فى أى اتجاه، وبذلك فهو يملك الإرادة التامة فى أن يختار السلوك الذى يريده والفعل الذى يشاءه؛ لأن هذه الإمكانية التى وهبه الله إياها لا تدخل فى اختياره لهذا الفعل أو ذاك.

ويكون الإنسان بذلك حرًّا مختارًا فى صدور أفعاله، ومن ثَمَّ تترتب مسئوليته عن صدور هذه الأفعال، ويكون حساب الله له على ذلك هو العدل المطلق الذى وصف الله به ذاته جَلَّتْ حكمته وقدرته.

ولتوضيح ما سبق نضرب المثل التالى:

فلنفترض أن هناك أحد الأشخاص أمام اختبار للزِّنا، فلكى يكون هذا الشخص أمام

اختيار حقيقى للزّنا فلا بد أن تتوافر له إمكانية تحقيق الفعل أصلاً حتى يكون هناك مجـــال لاختيار الزّنا أو عدم اختياره.

فهناك المرأة المُغْرِيَة اللّعوب، والاختفاء عن عيون الناس، والبعد عن العواقب، وتـــوافر القدرة الجنسية لفعل ذلك، وغير هذا من الظروف التى تدخل فى إطار هذه الإمكانية.

فإذا لم يمنح الله الشخص هذه الإمكانية ما كان يمكنه أن يختار أن يفعـــل الزنـــا أو لا يفعل، وإذا منحه الله هذه الإمكانية فإن أى فعل يُصْدِرُهُ من الزنا أو الابتعاد عن الزنا مـــا كان ليكون إلا بعد أن توافرت الإرادة الإلهية أولاً، أى: أنه لم يكن يملك هذه المشـــيئة إلا بعد أن يشاء الله ذلك أولاً. ثم يأتى دور الإنسان بعد أن مَلّكَهُ الله هذه الإمكانية.

ولا يعنى مجرد مُلْك الإنسان لهذه الإمكانية أنه قد أُجْبِرَ على الزّنا ولكنه مُنِحَ القـــدرة فقط على اختيار الزّنا أو عدم الزّنا، ولا تزال له الحرية التامة فى هذا الاختيـــار، فـــإذا زنى كان ذلك نتيجة لاختياره وإرادته دون أن يجبره أحد على ذلك، وإذا لم يزن كان ذلـــك نتيجة لاختياره وإرادته أيضًا ودون أن يجبره أحد على ذلك، وهو فى كلتا الحالتين ما كان ليستطيع أن يقرر اختياره لو لم يكن الله ﷻ قد شاء له ذلك أولاً.

القدر أو النصيب
بين ما تمَّ فعلاً وما سيتم

يقول الإمام الشافعى فى كتابه المأثور عن التوحيد (الفقه الأكبر):

"اعلموا أن ما شاء الله (كونه) لا محالة (يكون) وما شاء الله أن (لا يكـــون) فمحـــال (كونه) ولا يجوز أن يجرى إلا ما يريد".

ثم يذكر من الأدلة على ذلك: "أطباق المسلمين على القول بأن (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن". أ.هـ.

ولقد بنيت على هذه المقولة التى ذكرها الإمام الشافعى مقولة أخرى ترسخت فى وعينا الاجتماعى وهى: كل شىء نصيب وكذلك كل شىء بيد الله.

ولقد كان لمثل هذه المقولات الأثر الخطير فى سلوك المسلمين.

ولا أحد يستطيع أن يشكك فى صحة هذه المقولات من المنظور الإســـلامى ولكـــن المشكلة فى المعنى الذى استخلصه الكثيرون منها وجعلوا منه مســـوغًا لتبريـــر اتكـــالاتهم وسلبيتهم وسلوكهم الاستسلامى، وهذا المعنى الذى استخلصوه هو: أنه ما دام كل شىء نصيب وكل شىء بيد الله فلا مجال لمشيئة الإنسان وإرادته أمام الأحداث، ولـــيس علـــى الإنسان إلا أن يستسلم لما تدفعه إليه الظروف المحيطة به؛ لأن ذلك قدره ونصيبه، بل وقد يمضى الأمر إلى اعتبار محاولته للخروج من تلك الظروف هو تحدٍّ لإرادة الله ﷻ.

ونحن نعلم طبعًا أن كل شىء بيد الله، وأن كل شىء نصيب، ونـــؤمن بـــذلك أشـــد الإيمان، ولكن تعالوا بنا نتساءل: ما هذا الشىء الذى نعتبره نصيبًا يجب الاستسلام له؟ هل هو الشىء الذى تم بالفعل؟ أم الشىء الذى لم يتم؟.

من الطبيعى أننا عندما نكون أمام أحداث ما فى حركة حياتنا فإننا لا نستطيع أن نتكلم

إلا عن الشيء الذى تم بالفعل؛ لأنه الشيء الذى تحدد، ومن ثَمَّ جاز لنا القول بأن النصيب فقد فعل كذا، أمَّا الشيء الذى لم يتم بالفعل فإننا لا يجوز لنا أن نحدده ونسميه نصيبًا؛ لأنه لم يتحدد بعد، ولا يستطيع أحد منا أن يدَّعى علمه بما تريده المشيئة الإلهية، ومن ثَمَّ فقد يتوقع البعض حدوث أمر ما ويطلقون عليه لفظ نصيب ويتركون أنفسهم للاستسلام له، ثم تكون النتيجة حدوث أمر آخر غير الذى يتوقعونه، ومن هنا يبرز الخطأ الفاحش فى اعتبار ما هو متوقع ولكن لم يتم بالفعل على أنه قدر (نصيب)؛ لأن ذلك أمر فى علم الله ولا يستطيع أحد إدراك ما ستوقعه الإرادة الإلهية على وجه التحديد.

كل الأشياء قدر فى الله (نصيب)، آمنا بذلك غاية الإيمان، ولكن النصيب المحدد هو النصيب الذى وقع بالفعل، أما النصيب الذى لم يتم وقوعه فهو نصيب لم يتحدد بعد، ولذلك فلا يجوز لأحد إعطاءه وجهة معينة، ومطالبتنا بالاستسلام لها على أساس أن القدر على اليقين سيقرر هذه الوجهة.

قفوا عند هذه النقطة ورددوها كثيرًا لأنها غاية فى الأهمية:

وجود إسرائيل جاثمة على أرواحنا فى قلب العالم الإسلامى قدر ونصيب حق ولو كان ذلك راجع إلى أخطائنا، ولكن مهما كانت قوة إسرائيل ومن يساندها فإن ذلك لا يعنى أن دخولنا معها فى أى معركة جديدة سيكون نصيبنا فيها الهزيمة لا محالة!! من الذى قال هذا؟!! هل يستطيع أحد ادعاء إدراك ما تريده المشيئة الإلهية؟ هل من الممكن الاستناد فى ذلك على مفهوم القضاء والقدر فى الإسلام؟

فتاة تزوجت من أحد الأشخاص ثم اكتشفت بعد زواجها منه عيوبًا جسيمة فى شخصيته كافية لجعل حياتها معه جحيمًا، هنا نقول: نعم إن زواجها منه نصيب تحدد، لكن من الذى قال إن استمرار حياتها معه نصيب تحدد يجب الاستسلام له؟!!.

فريق لكرة القدم أصيب فى الشوط الأول من المباراة بثلاثة أهداف فى مرماه، هنا نقول إن إصابته بهذه الأهداف الثلاثة فى الشوط الأول نصيب قد تحدد، لكن من الذى قال إن هزيمته فى المباراة كلها نصيب قد تحدد يجب الاستسلام له؟!!.

إن هذه الأمثلة تؤهلنا لأن نشرح الموضوع شرحًا أكثر، وأن نتعرض لأمور فيه غاية فى الخطورة والعمق.

لقد قلنا إن ما تم بالفعل نصيب تحدد، أمَّا ما لم يتم فإنه نصيب لم يتحدد بعد، إذن فما دمنا لا ندرك ما الذى تريده المشيئة الإلهية فعلينا أن نعمل جاهدين لتحقيق ما نريد تحقيقه، فقد يكون هو الذى ستقرره الإرادة الإلهية فى النهاية، ويكون ذلك الـذى أردنـاه هـو النصيب الذى تحدد بالفعل.

سيقال: إن الأمور التى لم تتحدد بعد لها ظواهر تغلب عليها يبدو منها الوجهـة الـتى ستمضى إليها.

نقول: إن هذه الأمور التى تثير مثل هذه التساؤلات الكبرى فى حياتنا هى أمور أشـبه بالمعارك، فإذا جاز لنا أن نصفها هذا الوصف نستطيع أن نقول إنه ما دامت أى معركة لم تنته بعد فلا يمكن التسليم بأنها ستذهب لوجهة ما نقف عندها مهما كانت الظواهر الدالة على ذلك؛ لأنه ما دامت المعركة لم تنته بعد فالفرصة ما زالت ممكنة للحركة.. للفعـل.. لصنع ما هو من الممكن أن تقرره الإرادة الإلهية فى النهاية، وما دامت المعركة لم تنته بعـد وما دمنا لا نستطيع إدراك ما الذى تريده الإرادة الإلهية فى النهاية فإن القدر (النصيب) لم يتحدد بعد، وما زالت الفرصة قائمة لكى يكون ما نريد تحقيقه هو النصيب الذى سيتحدد فى النهاية.

ولكن تعالوا لمسألة أخطر.. قلنا: إن ما تم بالفعل هو قدر (نصيب) تحدد، ولكن مـن الذى قال إنه قدر (نصيب) نهائى يجب الاستسلام له وإلا نكون بذلك قد اعترضنا علـى الإرادة الإلهية؟

إن ما تم بالفعل ما دامت هناك إمكانية لتغييره فإن محاولة تغييره بأيدينا هى قدر أيضًـا، وما سيتم عن هذه المحاولة قدر (نصيب) أيضًا، فليس هناك ما يحتم علينا قبول ما تم، وليس هناك رادع يمنعنا من محاولة التغيير ما دمنا لا ندرك أن المشيئة الإلهية قد أرادت اسـتمرار هذا الأمر أم أرادت تغييره وهو أمر لا يجوز لأحد ادعاء إدراكه.

إذن فما دامت هناك إمكانية لتغيير الأمر الذى تم بالفعل فلا يجوز لأحد ادعاء أن محاولة التغيير هذه تمثل اعتراضًا على الإرادة الإلهية.. هذا جهل وتخلف ورجعية وافتراء على الدين ما أنـزل الله به من سلطان.

إن ما تم نصيب، ومحاولة التغيير ما دامت هناك إمكانية لذلك نصيب، وما سيتم بالفعل

نصيب أيضًا، وليس هناك أى حتمية توجب الاستسلام لما سيقع أو حتى لما وقع بالفعل ما دامت هناك إمكانية للتغيير؛ لأن هذه الإمكانية تنفى وجود القدر (النصيب) النهائى الذى يجب الاستسلام له، فهذا القدر النهائى الذى يجب الاستسلام له لا يكون موجـــودًا إلا فى حالة واحدة هى انتفاء وجود أى إمكانية لتغييره، عند ذلك فقط فإن عدم التســـليم لـــه يكون اعتراضًا على المشيئة الإلهية، وما علينا فى هذه الحالة سوى التسليم والرضا بما قسمه الله لنا.

* * *

٣- حرية الإرادة
بين الإنسان المسيطر
والإنسان المسيطر عليه

شخصية الإنسان بين السيطرة والتبعية

هناك طغاة يحكمون الأرض..

ليس على المستوى السياسي فقط وإنما على المستوى الاجتماعي أيضًا..

قلوب من الحجارة أو أشد قسوة..

قلوب يمتلكها الكبر والظلم والجبروت..

ومن هذا المعين الأسود تريد أن تنسج الحياة على أهوائها.

إن ما يريدونه فقط هو الحق والحقيقة وكل ما هو غير ذلك فلا شيء.

وكما أن هولاكو ونابليون وهتلر لا يهمهم في شيء سحق آلاف البشر واغتصاب خيراتهم من أجل بناء مجدهم الشخصي.

فإن هؤلاء على المستوى الاجتماعي لا يهمهم في شيء هرس عشرات النفوس واغتصاب أعمارهم من أجل إرضاء ذاتهم.

وكالوحوش التي تمتص الدماء من عروق فرائسها الضعيفة فإن هؤلاء يمتصون السعادة من عروق ضحاياهم ذوي النفوس الضعيفة.

لا العدل.. لا الرحمة.. لا الإحساس.. لا الشعور.. لا الحلال.. لا الحرام.. لا شيء في الوجود من مثل هذه الأشياء يمثل أي معنى لديهم، انظر إلى وجوده هؤلاء جيدًا تراها كصخر لا يلين.. إنهم قوم أرادوا منذ البدء أن ينازعوا الله في ألوهيته، وكيف لا وأهم ما يميزهم الأنانية التي لا حدود لها والشعور الدائم بجنون العظمة.

ونحن ندرك أن هذا النوع من البشر ضمن تلك الأنواع من الأنماط البشرية التي يوصف أصحابها بالسيكوباتية "حيث يتميز الشخص السيكوباتي بالأنانية، وعدم مراعاة شعور الغير، أو حرمة ممتلكاتهم وحقوقهم، وعدم تأنيب الضمير أو الشعور بالذنب، وتعوزه

القدرة على الحب أو التعلق بأى شيء أو أى أحد، وقد يضحى بأقرب صديق أو أقرب قريب له فى سبيل منفعة ذاتية، وبالرغم من قدرته على التعبير عن انفعالاته وعواطفه فهو نادرًا ما يكون صادقًا فيها"[1].

ولذلك فهذا النوع من البشر بالذات يكون فى الدرك الأسفل من النار يوم القيامة.

والمشكلة ليست فى هؤلاء..

إنما المشكلة فى من ينشئون أو يسقطون فى محرقة سيطرتهم.

والحقيقة الواقعة التى يجب أن نواجهها هى أن هذا الشخص المستبد يمثل بالنسبة لمن ينشئون أو يسقطون فى محرقة سيطرته واستبداده الطاغوت الذى أمرنا الله بالكفر به.

وكيف لا يكون كذلك.. إذا كان هو الذى يحدد لهم الحق والباطل، والخير والشر، والحلال والحرام، والنجاح والفشل، والصواب والخطأ، والعيب واللاعيب.. وهى الأمور التى لا يجوز أن تستمد إلا من المصادر الإلهية.

ولا بد أن يخرج الإنسان من سيطرة هذا الطاغوت أو بقول أقرب إلى الحقيقية لا بد أن يخرج من ظلمات عبوديته إلى نور الإيمان بالله وحده ﷻ.

ولا طريق إلى ذلك إلا بالاستناد على ركائز القوى المستمدة من الإيمان بالله ﷻ، لا بد من الاستعانة بالله والتوكل عليه؛ لأن من يستعين بالله ويتوكل عليه لا يستطيع أحد فى هذا الوجود هزيمته.

ولا بد من تحمل الخسائر.

فلا شيء ذا بال فى هذا الوجود يمكن تحقيقه بلا خسائر؛ لا بد من الخسائر.

لا بد من تحمل الخسائر مهما كان حجمها فى سبيل تحرير الإنسان من عبودية غيره.. وهل توجد خسائر فى العالم يمكن مقارنتها بخسائر الوقوع فى محرقة سيطرة شخص طاغ مستبد.

إن صورة بسيطة تستطيع أن تتبيَّن من خلالها حقيقة الفرق بين الأمرين أمامك.

قارن ولو للحظة واحدة من الحرية والوعى- إن كنت مازلت تملك هذه اللحظة- بين الحالة التى تقع فيها وبين الحالة التى يمكن أن تتصورها لو كنت أنت بالفعل- وليس

---

(١) المرجع فى علم النفس، د. سعد جلال، ص: ٨٠٨.

بالإيهام- تخرج عن سيطرة هذا الطاغوت وتقرر مصيرك ومواقفك فى الحياة بيدك.

قارن بين السعادة التى كان يمكنك تحقيقها لو كانت قراراتك بيدك وبين التعاسة الحقيقية أو السعادة الموهومة التى تعيش فيها وأنت ترزح تحت عبودية غيرك.

قارن بين هذا وذاك ليس بموازين الدنيا فقط وإنما بموازين الآخرة أيضًا.

قارن بين رضا هذا الطاغوت ورضا الله الذى لا يرضى أن يدين أحد لأحد بالعبودية إلا له.

قارن بين غضب هذا الطاغوت وبين غضب الله الذى يغضب على كل من يجعلون له أندادًا يحبونهم كحبه.

كيف تخسر دنياك وآخرتك لدنيا يصيبها غيرك؟!!

نعم.. دنيا يصيبها غيرك.

لأن السعادة التى تفتقدها لوقوع قراراتك تحت سيطرة غيرك تصير مدادًا لتغذية هذا الطاغوت وتقويته.

كيف تقبل هذا؟!!

وأى خسائر فى هذا الوجود يمكنها أن تجبرك على الرضا بذلك؟

وأى خداع أو غواية أو سيطرة يمكنها أن تلهيك عن هذه الحقيقة المريعة؟

إننا إذا كنا نتحدث عن الشخصية الضعيفة والشخصية القوية فلا بد أن نقرر أن الذى يقع تحت سيطرة غيره لا شخصية له على الإطلاق مهما أوهمه هذا الطاغوت بغير ذلك.

* * *

بعض أشكال سيطرة الأشخاص الطاغوتية على الأشخاص المستضعفة

إن الصورة المبسطة لسيطرة الشخص الطاغوتى على الشخص المستضعف هي أن يأمر الأول فيطيع الثانى وبذلك لا تتشكل حياة الثانى إلا داخل نطاق دائرة الأول.

ولكن هناك العلاقة الأشد تعقيدًا من هذه الصورة الساذجة.

إنها مزيج من فرض القوة والخداع معًا.

فلن يأمر الشخص الطاغوتى الشخص المستضعف بشىء ولكن سيجعله هو نفسه يحدد لنفسه ما يريده هو له.

ما معنى ذلك؟!.

إنه يضعه فى دائرة حديدية من الضغوط ويفهمه ضمنيًا أنه لن يتوانى لحظة واحدة عن تحطيمه إذا تحدى هذه الضغوط وحاول الخروج من دائرتها، ومن ناحية أخرى يعمل على إغرائه بأنه سيكون صاحب الحظوة والمكانة لديه دون الآخرين إذا حدد أهدافه ومواقفه داخل الدائرة المسموح له بها.

وبعد أن يكون الشخص الثانى قد انصاع للأول طمعًا فى حظوته وخوفًا من تحدى ضغوطه يكون قد اعتقد بأن ما ناله من تفوق على الآخرين فى التقرب من الشخص الطاغوتى- الذى قد يمنحه الحق فى فرض بعض السيطرة المحددة عليهم- هو تعويض له عما فقده من استقلال وما قدمه من تنازلات للشخص الطاغوتى، وتكون الحقيقة أنه قد دخل دائرة اللا تراجع فى استعباد الشخص الطاغوتى له. لقد صنع له كبرياءه المزيف الذى جعله يخسر كل شىء من أجل الحفاظ عليه، ووضعه بذلك أمام خيارين لا ثالث لهما إما أن يحافظ على ذلك المكسب الموهوم المتمثل فى حظوة الشخص الطاغوتى وما منحه له من

سيطرة على الآخرين، وإما أن يعرض نفسه للتحطيم الكامل إذا حاول تحدى إرادته.

وهو الأمر المستبعد تمامًا لأن استضعاف النفس كالكائن الحى ينمو ويكبر بمرور الوقت وتعدد المواقف حتى يصير وحشًا مرعبًا يستقر فى النفس ويبعث فيها الرهبة عند أى تفكير فى تحديه.

كما أن الشخص الطاغوتى لن يتأتى له إحكام قبضته على الشخص المسيطر عليه إلا من خلال إحكام قبضته على وعيه؛ ولذلك فهو يعزله عن أى شخص لديه الجرأة على تحديه، كما أنه يعمل على عزله شعوريًا عن أى مصدر قد يتأتى منه الوعى القادر على كشف زيفه وتحدى غطرسته.

إنه يضعه فى طريق وحيد ويغلقه عليه تمامًا، ويفهمه أنه لكى ينال رضاه فلا بسد أن يتجرع المرار ويشهد أمام كل الناس أنه شهد مذاب.

إنها درجة من الإضلال والكيد لَتَزُولُ منها الجبال.

وبذلك يستمر الشخص الواقع تحت السيطرة الطاغوتية فى اتخاذ الخيار الأول وهو تحقيق رضا الشخص الطاغوتى بشكل مطرد حتى يصير هذا أمر ميكانيكى مستمر على الدوام، فهو لا يريد إلا ما يحقق رضا الشخص الطاغوتى حتى تذوب إرادته فى إرادة ذلك الشخص الطاغوتى تمامًا، ولأن هذا ما يصنع له مكسبه الموهوم فإنه يجد الراحة والسعادة فى أن تتمثل إرادته وإرادة الشخص الطاغوتى على الدوام.

وبذلك عندما يتعرض ذلك الشخص الواقع تحت تلك الدرجة من السيطرة الطاغوتية لموقف من المواقف فإن الشخص الطاغوتى يتركه يفعل ما يشاء فى اختيار موقفه وهو واثق تمامًا أنه لن يشاء إلا ما يريده هو.

بينما الشخص المستعبد الذى بات مع مرور الوقت يختار مواقفه بتمثل إرادة الشخص الطاغوتى يعتقد أنه يختار هذه المواقف على إرادة حرة منه مع أن الحقيقة أن إرادته قد ذابت تمامًا فى إرادة الشخص الطاغوتى، وأنه هو نفسه يدرك فى المستويات الشعورية العميقة مرارة الفصام الفظيع بين إرادته الموهومة ووضعه الزائف وبين الواقع الحقيقى لعبوديته.

وهكذا لا يشاء الشخص المستعبد شيئًا إلا ما يريده الشخص الطاغوتى، فى نفس الوقت الذى يعتقد فيه أنه يحقق ذاته ويتقدم إلى الأمام نحو القوة وفرض السيطرة على الآخرين.

وقاعدة الانطلاق للخروج من محرقة السيطرة الطاغوتية هى الوعى الإيمانى.

لا بد أن يعى الإنسان المستعبد بحقيقة استعباده وزيف العالم المصطنع الذى يضعه فيه الشخص الطاغوتى.

الوعي بحقيقة أن حرية الإرادة هى الأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان وأن التفريط فيها خيانة.

لا بد أن يعى أن أى خسائر من الممكن أن يتعرض لها نتيجة لتحديه لهذا الشخص الطاغوتى هى أقل كثيرًا من الخسائر التى يعانى منها بالفعل نتيجة تسليمه إرادته لهذا الشخص؛ لأن فاقد الإرادة هو فاقد كل شىء.

لا بد أن يعى أنه لا حاكم فى هذا الوجود إلا الله، ولا حق فى هذا الوجود إلا الحق الذى يحقه الله، وأنه لا قيم ولا معايير من الممكن أن نحتكم إليها فى هذا الوجود إلا القيم والمعايير المستمدة من دين الله، ولا طاعة لأحد فى هذا الوجود إلا لله ولمن أمرنا الله بطاعته، فإذا حلل أحد شيئًا حرَّمَه الله أو حرَّمَ شيئًا أحلَّه الله فلا طاعة له؛ لأنه "لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق".

لا بد أن يعى أن تبعيته لهذا الشخص الطاغوتى واستسلامه له وإيمانه بصحة ما يراه وحبه لكل ما يذهب إليه حتى ولو تعارض مع أحكام الله وتعاليمه أنه بذلك يجعل منه ندًّا لله يحبه كحب الله أو أشد حبًّا، وكما يقول الرسول ﷺ: "المرء مع من أحب يوم القيامة"، أى: أنه يكون بذلك قد خسر كل شىء الآخرة والدنيا معًا من أجل دنيا يصيبها غيره.

يقول الله ﷻ فى كتابه العزيز: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

(البقرة: ١٦٥- ١٦٧).

ويقول تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ

عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ (إبراهيم: ٢١).

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ (غافر: ٤٧- ٤٨).

* * *

٤- الكبر كقيد كبير على حرية الإرادة

الكبر كقيد كبير على حرية الإرادة

الكبر هو الجريمة الأولى فى الوجود.

الكبر هو التحدى الجاحد لإرادة الله.

الكبر عائق مريع يحول بين الإنسان وبين الحقيقة.

وبينه وبين الإيمان.

وبينه وبين الحب.

وبينه وبين الصدق.

وبينه وبين الحرية.

وبينه وبين الراحة.

وبينه وبين الأمان.

وبينه وبين كل ما هو جوهرى فى الحياة.

وبينه وبين امتلاك القوى الحقيقية التى من الممكن أن يصنع منها شخصيته.

ولكن الناس قد تنظر إلى الكبر على أنه مجرد عيب أخلاقى مثله فى ذلك مثل الكثير من العيوب الأخلاقية الأخرى، بل إنه قد لا يقابل بالاستياء الذى تقابل به عيوب أخلاقية أخرى هى فى حقيقتها فى مرتبة أدنى منه كثيرًا من ناحية الاستهجان الدينى لها.

يقول الإمام سفيان بن عيينة: من كانت معصيته من شهوة فأرجو له التوبة فإن آدم عليه السلام عصى مشتهيًا فغفر له.

فإذا كانت معصيته من كبر، فأخشى عليه اللعنة فإن إبليس عصى مستكبرًا فلعن.

ولكن ما هو الكبر؟

يعرّف الرسول ﷺ الكبر فيقول: "الكبر: هو بَطَرُ الحقِّ وَغَمْطُ الناس" وبطر الحق: أى رفضه ودفعه ورده على قائله، الخلاصة: إنكاره، وغمط الناس: أى احتقارهم والاستعلاء عليهم.

وفى الحقيقة فقد أقام الإسلام حربًا ضروسًا لا تنقطع ولا يهدأ لها أوار ضد الكبر والمستكبرين فى الأرض إلى يوم القيامة.

يقول رب العزة عن نفسه فى القرآن الكريم:

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (النحل: ٢٣).

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان: ١٨).

تُرَى ما هى قيمتك فى هذا الوجود إذا كان الله لا يحبك.

وهزأ القرآن بهم وسفّه منهم.

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٧).

من أنت؟ ومن تكون؟ وهل تستطيع أن تخرق الأرض؟!.. يا لها من سخرية. وماذا تكون أنت مهما بلغت أو تعددت محاسنك بالنسبة للأرض لكى تستطيع خرقها؟!!....

مخلوق ضعيف يهيم على وجهه مثلك مثل الملايين غيره الذين طوتهم هذه الأرض وصاروا بعض تراها الذى تسير عليه أنت الآن.

وماذا تكون أنت بجانب الجبال؟ مخلوق ضعيف هيِّن لا يكاد يبين، بينما هى على شموخها وعظمتها وجمالها وضخامتها التى تراها هكذا على مَرِّ الأزمان والعصور تأتى لله طائعة خاشعة مقرة له وحده بالكبرياء والعظمة والجبروت.

والكبرياء لا يليق إلا بالله الواحد القهار، وقد جاء فيما يرويه الرسول ﷺ عن رب العزة فى حديثه القدسى: (العز إزارى، والكبرياء ردائى، فمن ينازعنى عذبته)[1].

نعم إذا كان الله قد جعل الكبرياء له وحده فمن هذا الذى يريد أن يشاركه فيه.

---

(١) جاء فى شعب الإيمان للبيهقى ٢٨٠/٦ حديث ٨١٥٧، وفى الأدب المفرد للبخارى ١٩٤/١ حديث ٥٥٢ "باب الكبر".

ولذلك فقد جاء الحديث النبوى يقرر بكل حسم أنه: "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر"[(١)].

فالمتكبرون ليس لهم إلا مصير واحد تقرره النصوص بكل حسم أيضًا هو النار.

جاء فى الصحيحين عن الرسول ﷺ أنه قال: "قالت النار: أوثرت بالمتكبرين"[(٢)].

وعنه ﷺ فى الصحيحين أيضًا أنه قال: "ألا أخبركم بأهل النار؟: كل عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ"[(٣)].

والخسف أو الإذلال فى الدنيا قد يصيب بعض المتكبرين ولا يصيب البعض الآخر لاستدراج الله لهم فى غَيِّهِمْ، يقول الرسول ﷺ: "إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج)[(٤)].

أما قاعدة الخسف والإذلال والتحقير والمهانة يوم القيامة فإنها قاعدة عامة تطبق على المتكبرين أجمعين فلا يفلت منها أحد، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ: "يُحْشَرُ الجبَّارون والمتكبِّرون يوم القيامة فى صورة الذر (أشبه بالحصى) يطؤهم (أى: يدوسهم) الناس لهوانهم على الله ﷻ"[(٥)].

نعم.. إن الجزاء العادل للمستكبرين فى الأرض الذين يتحدون إرادة الله ويتعالون على خلقه هو أن يُدَاسُوا بالأقدام يوم القيامة.

* * *

---

(١) جاء فى صحيح مسلم ٦٥/١ حديث ٢٧٥، ٢٧٧، ومسند أحمد ٦٠/٧ حديث ٣٩٤٧.

(٢) جاء فى صحيح البخارى ١٨٣٦/٤ حديث ٤٥٦٩، ٢٧١١/٦ حديث ٧٠١١، وفى صحيح مسلم ١٥١/٨ حديث ٧٣٥٢، ٧٣٥٤.

(٣) جاء فى صحيح البخارى ١٨٧٠/٤ حديث ٤٦٣٤، ٢٢٥٥/٥ حديث ٥٧٢٣، وفى صحيح مسلم ١٥٤/٨ حديث ٧٣٦٦.

(٤) جاء فى المعجم الأوسط للطبرانى ١١٠/٩ حديث ٩٢٧٢ بلفظ: (إذا رأيت الله يعطى العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك له منه استدراج)، وكذلك فى المعجم الكبير ٣٣٠/١٧ حديث ١٤٦٠٠ بنفس اللفظ السابق، كما جاء فى مسند أحمد ٤٥٧/٢٨ حديث ١٧٣١١ بلفظ: (إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج)، وفى الزهد لأحمد بن حنبل ١٢/١ بلفظ: (إذا رأيت الله ﷻ يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنه استدراج).

(٥) جاء فى الزهد لأحمد بن حنبل ٢٢/١ بلفظ: (يُجَاءُ بالجبَّارين والمتكبِّرين رجال فى صورة الذَّرِّ يطؤهم الناس من هوانهم على الله ﷻ حتى يقضى بين الناس).

الكبر يؤدى إلى أن يتقوقع الإنسان داخل ذاته جاعلاً منها إلهًا آخر مع الله، ومن هنا كان الكبر قرينًا للشرك.

الكبر يؤدى إلى الخوف من كل شيء قد يُعَرِّضُ صورة الاستعلاء التي يبديها المتكبر للمساس، وما أكثر الأشياء التي من الممكن أن تُعَرِّضَهُ لذلك.

الكبر يؤدى إلى التضحية بكل ما هو جوهرى فى سبيل الإبقاء على كل ما هو شكلى.

الكبر يؤدى إلى أن يعيش الإنسان فى حصار من كراهية الناس ونقمتهم.

الكبر يؤدى إلى هزيمة الإنسان الحتمية فى الحياة لتعارضه مع المرونة التى تستوجبها معاركها.

الكبر يؤدى إلى تردى الإنسان السريع فى هاوية الاستعاضة بالمكاسب النفعية عن المقومات الحقيقية للإنسان.

الكبر يؤدى إلى أن يحيا الإنسان فاقدًا كل شيء.

فاقدًا حياته الدنيا.

وفاقدًا حياته الآخرة.

كل ذلك فى سبيل الدفاع عن شيء واحد هو عبادة نفسه، والشعور الدائم بالتعالى على الناس، والنار مثوى المتكبرين.

إن العزّة فى الإسلام هى عزّة الخضوع للحق، عزة التعالى على الباطل وتحديه ومواجهته بكل ما أوتى الإنسان من عزم وقوة وقدرة على التضحية وتحمل الخسائر.

عزّة الخضوع للحق الذى هو أوامر الله التى يجد المؤمن منتهى عزته فى الخضوع لها.

إن معاندة الحق والحقيقة هى اختيار الإنسان لطريق التَّرَدِّى فى هاوية الكبر والزيف والضلال.

فهل من الممكن أن يقيمَ الإنسان فوق ذلك كبرياء؟؟!!!!..

* * *



٥- ما الذى يمثل شخصية الإنسان
عمل الإنسان أم البرستيج

ضد البرستيج

أنت من؟....

أنت عملك....

تحرر من كل أردية[1] الزيف التي تحجبك عن حقيقة نفسك وحقيقة الآخرين.

ما هي حقيقة وجودك؟ وما هي حقيقة الإنسان بوجه عام؟

أيها الإنسان ما هو المعيار الحقيقي لتقييم نفسك وتقييم الآخرين.

هل هو أمر آخر غير عملك وعمل الآخرين؟

هل من الممكن تقييم الإنسان بشيء آخر غير الشيء الناتج عن إرادته؟

وهل هناك شيء آخر ينتج عن إرادة الإنسان سوى عمله؟

وأي فضل للإنسان فيما لا إرادة له فيه؟!

يقول تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣).

ويقول الرسول ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم"[2].

ويقول كذلك: "الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى"[3].

---

(١) أردية: جمع رداء.

(٢) جاء في صحيح مسلم ٨/١١ حديث ٦٧٠٧.

(٣) جاء في فتح القدير ٧/٤٥، وكذا في كشف الخفا للعجلوني ٢/٣٢٦ حديث ٢٨٤٧ بلفظ: (الناس مستوون كأسنان المشط ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى).

وإذا أخلصت النية لله فلا فرق بين العمل الديني والعمل الدنيوي؛ لأنه في هذه الحالة يكون العمل الدنيوي هو أيضًا عمل ديني.

فعمل الإنسان هو الذي يقيم بناء حقيقة وجوده، وتتحدد قيمة هذا البناء بمدى قيمة العمل المبذول على امتداد حياته، وعلى ذلك يكون عمل الإنسان هو الذي يمثل هذه الحقيقة.

إن الفارق الوحيد بين الإنسان الحقيقي الذي يعيش في الحقيقة والإنسان المزيف الذي يعيش في الزيف والضلال هو مدى إيمانه أو عدم إيمانه بهذه القاعدة: قاعدة كون الشيء الوحيد الذي يمثل قيمة الإنسان هو عمله.

من غير المعقول أن يمثل قيمة الإنسان رداء جميل أو مظهر حسن بينما يكون عمقه الداخلي منطويًا على التفاهة والفجور والابتذال.

من غير المعقول أن يمثل قيمة الإنسان انتسابه إلى عائلة أو أسرة كبيرة بينما يكون ما أضافه هو إلى وضعها هو نفس الإضافة التي يضيفها الصفر الحسابي إلى قيمة رقمية كبيرة.

وليس من المعقول أن يمثل قيمة الإنسان ثروته بينما يكون هو تافهًا لا يحسن شيئًا ولم يبذل جهدًا في صنع هذه الثروة أو حتى قد بذل جهدًا ولكن الله هو الذي رزقه بالتوفيق في بذل هذا الجهد بينما لم يرزق غيره بذلك أو أتى بها عن طريق غير شرعي، وهو أمر لا يدعو إلى الفخر بل يعبِّر عن الوضاعة والحقارة والضياع.

لكن الذين يعيشون في الزيف ينسون كل ذلك ولا يبحثون إلا عن شيء واحد هو ما يحقق لهم وضعًا اجتماعيًا يمكنهم من خلاله التعالي على الناس.

البرستيج.. البرستيج.. البرستيج:

هو كل شيء.. كل شيء.. كل شيء..

ويُضحي من أجله بكل شيء..

ليس مهمًا أن أمتلك شيئًا حقيقيًا ولكن الأهم أن أظهر في الواقع الاجتماعي بأنني أمتلك شيئًا كبيرًا.

ليس من المهم أن أخسر الكثير من الأموال في سبيل إيهام الناس بأنني أملك ثروة كبيرة حتى ولو كان ما أملكه مثقلاً بالديون ومهددًا بالخراب.

ليس مهمًّا أن أتكلم كلامًا سليمًا حقيقيًّا ولكن المهم أن أهتم بالطريقة التى أتكلم بها حتى أبدو أمام الناس أننى عاقل حكيم، حتى لو كان ما أقوله تافهًا أو مزيفًا.

ليس من المهم أن أكون سعيدًا وأصحح مسار حياتى لأحقق هذه السعادة، المهم أن أبدو أمام الناس أننى سعيد، وأننى لم أخطئ فى تحديد مسارى حتى لو أدى ذلك إلى أن أعيش حياتى كلها فى مسرحية مزيفة كل يوم أقدم فيها فصلاً جديدًا.

ليس من المهم أن أخرج من ورطتى وأصنع الصواب وأنتهز الفرصة إذا سنحت لى وأخرج من دنيا الضلال التى أعيش فيها إلى دنيا الحق والإيمان.

لا.. لا.. لا.. هل أُعَرِّضُ البرستيج للانهيار؟

لا.. لا بد أن أكمل طريقى وأظل مستمرًّا فى الضلال؛ لأن رجوعى عن هذا الطريق يعنى إقرارًا منى أمام الجميع أننى كنت فى طريقٍ ضالٍّ، أى: أن شكلى الاجتماعى (البرستيج) الذى يمثل كبريائى الذى أعيش من أجله كان مزيفًا؟ لا.. لا.. فَلْيَهُنْ كل شىء من أجل الحفاظ على هذا البرستيج.. الحلال والحرام معًا.

لا تقل لى اتركِ هذا الطريق.. إن هذا الطريق يسبب لك الوقوع فى الكثير من المحرمات.. لا تقل لى هذا.. كيف أعترف على نفسى بذلك وأُعَرِّضُ صورتى للاهتزاز.

لا.. لا.. سأستمر فى خطئى أيًّا كان وأقنع نفسى أو أدَّعِى أمام الآخرين أنه الطريق السليم، وأن ما تدعون إليه هو الخطأ والحرام والضلال، وسوف تضيع الحقيقة وتختفى معالم القضية فى مجتمع يجعل الجهلُ السائد فيه الحلالَ حرامًا والحرامَ حلالاً، ومن ذا الذى يهتم فى هذا المجتمع أصلاً بالبحث عن الحلال والحرام أو الصواب والخطأ.. المهم البرستيج، والبرستيج فقط.

وهكذا فالإنسان الحقيقى هو الإنسان الذى يضحى بكل ما هو شكلى مظهرى فى سبيل كل ما هو حقيقى جوهرى.

والإنسان المزيف هو الإنسان الذى يضحى بكل ما هو حقيقى جوهرى فى سبيل كل ما هو شكلى مزيف.

ومن الطبيعى ألا يتعاطف الإنسان مع الذين صنعوا الزيف بأنفسهم واختاروا أن يعيشوا فيه، لكن المشكلة فى هؤلاء الذين ترغمهم الظروف أو يوقعهم الجهل الاجتماعى فى عالم

من الزيف والضلال، وعندما تسنح لهم الظروف بالخروج من هذا العالم يصطدمون بهذه المشكلة مشكلة أن خروجهم من هذا العالم إقرار منهم بزيف العالم الذى كانوا يعيشون فيه، وهو ما يتعارض مع كبريائهم.

وهنا تتجلى مدى قوة النفس ومدى تمسكها بإيمانها وحقائق دينها.

لأن الذى يحمل إيمانًا حقيقيًا هو الذى ينتهز فرصة الخروج من عالم الزيف الذى أُرْغِمَ على الوقوع فيه لكى ينطلق منه محطمًا عوائق الكبرياء والشكل الاجتماعى التى تحول بينه وبين الخروج من عالم الزيف إلى عالم الحقيقة.. من الظلمات إلى النور.

لأن المؤمن الحقيقى لا يستطيع أن يضحى بالحق من أجل الزيف.. وبطريق الهداية من أجل الحفاظ على كبرياء الضلال والشكل الاجتماعى المزيف.. وإلا فإن إيمانه هو الآخر يكون إيمانًا مزيفًا.

وهناك نوعان من البشر المزيفين:

نوع يعيش فى الزيف ويرتضيه ويقتنع أنه الحقيقة وهؤلاء كالأخسرين أعمالاً الذين قال عنهم القرآن: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٦).

أما النوع الآخر من البشر المزيفين فإنهم يدركون حقيقة الهُوَّة السحيقة التى تفصل بين واقعهم الحقيقى وبين واقعهم المزيف الذى يبرزونه ويختفون تحته.

ولكن حاجز الكبرياء يقف حجر عثرة دون اعترافهم بذلك والتخلى عن الوهم والزيف والادعاء والصعود بالنفس من مستنقع الضلال إلى بَرِّ الهداية والصلاح.

وكلما اعتمد الإنسان على المظاهر ليستمد منها قوته كلما افتقد- على التوازى من ذلك - دعائم القوة الحقيقية التى من الممكن أن يصنع منها لنفسه شخصية قوية بشكل حقيقى وليس بشكل مزيف.

ولذلك فالأشخاص الذين يعتمدون على المظاهر فى صنع شخصيتهم هم أنفسهم أكثر

الأشخاص ضعفًا.

مهما حاولوا أن يلزموا أنفسهم على البروز للناس فى مظهر الشخصية القوية الفريدة من خلال التركيز على أداء كافة المظاهر المشاعة عن سمات الشخصية القوية من حركة ولا حركة، وطريقة أداء للكلام وطريقة أداء للصمت، وأسلوب للدخول فى موضوع ما وأسلوب للخروج منه وغير ذلك.

والدليل على ذلك: هو زلزلة مثل هؤلاء الأشخاص وارتعادهم وتخبطهم فى مواقفهم عند تعرضهم لأى موقف ذى شأن فى حياتهم.

وقد جاء فى وصف الله للمنافقين قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ (المنافقون: ٤).

وللشاعر الفارسى سعدى الشيرازى كلام رائع فى هذا المعنى:

إنما يشرف جسم الإنسان بروح الإنسان..

ليس اللّباس الجميل هو إمارة الإنسانية..

لو أن الإنسان بعينه وفمه وأذنه وأنفه.. فبأى شىء يفترق إذن عن نقش مرسوم على جدار..

الطعام والنوم والغضب فتنة وجهل وظلمة..

وليس لدى الحيوان خبر بعالم الإنسانية..

كن إنسانًا حقيقة وإلا فأنت ببغاء..

تعيد كلامًا بلسان إنسان..

إن لم تكن إنسانًا فأنت أسير الشيطان..

على حين لا يجد المَلَكُ سبيلاً إلى الظفر بالمكانة الإنسانية..

لو أن طبيعتك الوحشية فنيت من جبلتك..

لعشت طول عمرك بروح إنسانية..

يصل الإنسان إلى حيث لا يرى سوى الله..

فانظر إلى أى حد تبلغ بك مكانة الإنسانية..

قد رأيت الطائر يطير صعدًا..

فتحرر من قيد الهوى حتى ترى كيف تصعد بك الإنسانية" أ.هـ.

أقول: أيها الإنسان

تحرر من وطأة (البرستيج) على قلبك.

كيف تجعل من بروازك الخارجى الذى يصطنعه كبرياؤك الموهوم سجنًا لروحك؟!

حطم كل هذه القيود الخانقة واقترب من حقيقتك.

اسجد لله واعترف أنك لست شيئًا إلا عملك.

تكن إنسانًا حقيقيًا.

أى.. تكن إنسانًا قويًا.

* * *

ثانيًا: ترسيخ المفاهيم والقيم الإيمانية داخل النفس الإنسانية

١- ركائز القوة الإيجابية

لا بد من القوة

لا بد من القوة

فالناس ليسوا مع الحق.

ولكن الكثيرين لا يدركون أن الناس أيضًا ليسوا مع الباطل.

وإنما الناس مع القوة.

ومع أن الحق قوة فى ذاته.

ولكنه قوة لا بد أن تدعم بقوى أخرى مثل التضحية والبذل والإخلاص والتصميم والفداء لكى يذيع وينتشر.

والخليفة عثمان بن عفان ﷺ يقول عن قوة مثل قوة السلطان: "إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"[1].

وللقوة فى الإسلام عدة ركائز تمثل جميعها جوانب وأركان العقيدة الإسلامية، وما تثيره فى نفس المسلم من وعى إيمانى بهذا الوجود، وعلى ذلك فإن قوة المسلم تتمثل فى مدى عمق تمسكه ويقينه بحقائق عقيدته.

إن الإنسان الربانى هو الإنسان الذى تتمحور حياته حول لا إله إلا الله.

فإذا أردت ألا يفوقك أحد قوة فاجعل من لا إله إلا الله قوتك وحريتك وقاعدة انطلاقك فى هذا الوجود.

وهذه هى بعض ركائز تلك القوة.

* * *

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١١١/٥ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠).

الاعتصام بالله

يقول الله ﷻ:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج: ٧٨).

أيها الإنسان أين تذهب ولمن تلجأ؟

فالله هو المالك الوحيد لهذا الوجود.. هو وحده الذى بيده ملكوت الأمر وهو وحده الذى بيده الخير والشر.

هو الذى يَبْلُوَكَ وهو الذى بيده رفع بلائه عنك.

فكيف تلجأ لغيره؟!

وأى قوة فى هذا الوجود يمكن أن تقارن بقوة الاعتصام بالله؟! والاعتصام بالله يتمثل فى انتهاج تعاليمه وأوامره وشرائعه، والوقوف عند حدوده، وإقامة أركان دينه من صوم وصلاة وزكاة وحج، والتقرب إليه بالسنن والنوافل وقيام الليل، والتوكل عليه فى كل حال، والالتجاء إليه فى كل أمر والشعور الدائم بأنه معك فى كل مكان يراقب كل ما تفعله من صغير أو كبير حتى تبلغ مرتبة الإحسان والتى هى أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك فإذا كان الله مولانا فهل من الممكن أن نلتجئ إلى مولى غيره وهل هناك نصير يمكن أن يدانيه قوة؟!!

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١٤٥- ١٤٦).

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (النساء: ١٧٥).

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٠١).

إن الاعتصام بالله هو أن تتقرب إلى الله بالطاعة حتى تكون عبدًا ربانيًّا تتمثل إرادتــك وسلوكك في كل ما تفعل إرادة الله العظمى.

* * *

التقوى والتوكل

اقرأ هذه الآية جيدًا:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق: ٢- ٣).

يعرف الإمام عليٌّ (كرَّم الله وجهه) - فيما يروى عنه - تقوى الله فيقول:

(تقوى الله هى الرضا بالقليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل).

إن تقوى الله هى سياج هذا الدين الذى يقى المؤمن من شرِّ نفسه بالشطط إلى مسارب الشيطان ومن شر مكائد شياطين الإنس والجن، ولذلك قال الرسول ﷺ فى وصيته لابن عباس: "احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ"(1).

ولو عكف الناس على مدارسة حقائق دينهم لنجوا بأنفسهم من كثير مما يصيبهم من مهالك، ولأراحوا أنفسهم مما يعانونه من أجل البحث عن الشفاء مما يصيبهم من علل شيطانية.

إننى أسائل الذين يشكون من مَسِّ الشياطين الذى يصيبهم، أو الذين يعيشون أعمارهم فى ذعر من كيد شياطين الإنس والجن لهم والمتمثل فى أعمال السحر والجان.. أسائلهم لو عملوا بتلك النصيحة التى وجهها الرسول ﷺ لابن عباس: "احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ"(2).

هل توجد فى الوجود قوة يلتجئون إليها لتحميهم خير من تلك القوة التى تتضمنها تلك النصيحة؟!؟!...

وكما أن تقوى الله هى السياج الذى يحفظ المؤمن من شرور نفسه وغيره فهى أيضًا القوة الدافعة التى تخرج به من كل ضائقة وبلية، وهى أيضًا سبيله الإيمانى المتين إلى الرزق،

---

(1) جاء فى سنن الترمذى ٤/٦٦٧ حديث ٢٥١٦، وشعب الإيمان للبيهقى ٢/٢٧ حديث ١٠٧٤، ٧/٢٠٣ حديث ١٠٠٠٠، ١٠٠٠١.

(2) المصدر السابق.

وأى رزق هذا؟ إنه الرزق الذى لا يخطر على باله إتيانه من أى طريق من الطرق التى يقيم عليها حساباته، أى رزق هذا؟

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (الطلاق: ٣).

أى طمأنينة تبعثها فى نفس المسلم هذه الآية!.

وهل يحتاج الإنسان لأى سند آخر أو عون من أحد إذا كان الله هو حسبه؟!

لقد قُضِيَ الأمر!.

إذا أردت أن يكون حسبك الله فتوكل عليه، فأى قوة يحملها المؤمن بين جوانحه إذا كان حسبه الله.

لذلك قال الرسول ﷺ: (إِذَا أَرَادَ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ)[1].

وفى وصيته لابن عباس قال ﷺ: (وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَإِذَا تَوَكَّلْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)[2].

إنها القوة التى تجعل من يحملونها لا يرهبون أحدًا غير الله مهما جمع لهم الناس وحشدوا لهم الحشود وحذرهم آخرون.

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران: ١٧٣).

أمَّا إذا قيل إن هذه هى أمريكا وما أدراكم ما أمريكا؟ وهذه هى إسرائيل وما أدراكم ما إسرائيل؟ فاخشوهم فخشيناهم فإن ذلك نفى للإيمان ودليل على افتقاد التوكل.

لابد أن يتيقن المسلم إن إرادة الله هى النافذة فى الكون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾

---

(١) جاء فى جامع الأحاديث للسيوطى ١٦٨/٩ حديث ٨١٦٠ بلفظ: (من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله)، ٣٩١/٢٠ حديث ٢٢٤٣٦ بلفظ: (من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله)، وكذا ابن أبى الدنيا فى مكارم الأخلاق ص ١٨ رقم ٥، والبيهقى فى الزهد ٣٦٤/٢ حديث ٩٨٦.

(٢) جاء فى سنن الترمذى ٦٦٧/٤ حديث ٢٥١٦، وشعب الإيمان للبيهقى ٢٧/٢ حديث ١٠٧٤، ٢٠٣/٧ حديث ١٠٠٠٠، ١٠٠٠١ بدون قوله: (وإذا توكلت فتوكل على الله).

(الطلاق: ٣) على الرغم من أنف شياطين الإنس والجن. وماذا من الممكن أن يكون شأن هؤلاء بالنسبة لإرادة الله؟! إنه لا شيء على الإطلاق.

إذن فما السرُّ وراء ما يحدث فى الكون؟ ما السرُّ وراء تمادى هؤلاء وهؤلاء فى غيِّهم وعلوِّهم فى الأرض؟ هناك أسرار كثيرة وراءها حكمة عظيمة.

من أهم هذه الأسرار هذه الكلمة التى يعلِّمنا الله إياها: ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق: ٣).

فليست الأمور على هواى أو هواك ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً ﴾ (الإسراء: ١١).

ولكن الأمور تجرى بمقادير قد لا نَعِى نحن الحكمة من ورائها، قد لا نَعِى الحكمة من وراء تقديم أمر أو تأخير آخر، ولكن كلما تقرَّب المسلم إلى ربه كلما هداه إلى سبيل الرشاد فاستطاع أن يَعِى كثيرًا من الحِكَمِ التى تنطوى عليها هذه المقادير.

* * *

الصبر

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (لقمان: ١٧).

هكذا أوصى لقمان الحكيم ابنه.. فبقدر ما يمتلك الإنسان من قوة الصبر بقدر ما تتحدد قدرته على الصمود فى أى صراع.

وفى الحقيقة فإن قوة الصبر تُستَمَدُّ أساسًا من قوة الإيمان.. فهى مرآة صادقة لما يحمله الإنسان من إيمان داخلى؛ ولذلك فابتلاءات الله للإنسان تكشف عن حقيقة هذا الإيمان بمدى ما يواجه به هذه الابتلاءات من صبر. يقول الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (محمد: ٣١).

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢- ٣).

ومع أن الله عليم ببواطن الأمور إلا أن الإنسان يُحَاسَبُ على تحقق هذا العلم فيما اتخذ من سلوك وتصرفات وهو ما تشهد به أعماله عليه يوم القيامة.

والذى يؤمن بأن الله بيده ملكوت الأمر والذى يحيا عمره راجيًا الآخرة لا الدنيا تكون النتيجة المنطقية لموقفه هذا أن تهون عليه شئون الدنيا فلا يجزع لما فاته من مكاسب ولا يضعف لما أصابه من نوازل.

اقرأ معى قول الله ﷻ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٥- ١٥٦).

نعم إذا كان الأمر كله لله (ومن له الأمر غيره؟) فإنه ليس أمامنا إلا الصبر.. وما دمنا راجعين إليه فهو أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، وهو الذى وعدنا - ومن أصدق وعدًا من الله - بأن لنا رضاه والجنة على هذا الصبر فكيف بعد ذلك كله لا نصبر؟!!.

وبقول أكثر دقة فإن الصبر هو التطبيق العملى لما يحمله الإنسان من إيمان داخلى. ومن

هنا كانت تقسيمات الصبر هى نفسها التقسيمات التطبيقية العملية للإيمان، فالصبر صبر على الطاعة.. وصبر على المعصية.. وصبر على النوازل.. وهى نفس المناحى العملية للإيمان، والابتلاءات المستمرة هى تدريب للمؤمن على قوة تحمل صبره.. ومن ثَمَّ فهى مدارج له للصعود بإيمانه إلى منازل العلا والتقرب إلى الله، وعندما سئل الرسول ﷺ: أى الناس أشد بلاءً؟ قال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الناس على قدر دينهم فمن اشتد دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه حتى يمشى على الأرض ما عليه خطيئة"[1].

وعنه ﷺ أنه قال: "من يتصبر يصبره الله وما أُعْطِىَ أحد عطاءً خيرًا أوسع من الصبر"[2].

وعنه أيضًا ﷺ: "إن عِظَمَ الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط"[3].

وعنه أنه قال ﷺ: "الصبر ضياء"[4]، نعم إن أعظم السبل نفاذًا إلى الحقيقة فى هذا الكون هو تحمل الآلام، وهذا هو التفسير الحقيقى لهذا الحديث الذى حمل بين كلمتيه حقيقة من أعظم حقائق الوجود.

يقول الله تعالى: ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٣).

فإذا كان الله مع الصابرين فأى قوة فى الأرض تستطيع هزيمتهم؟!!

* * *

---

(١) صحيح ابن حبان ١٨٣/٧ حديث ٢٩٢٠، باب [ما جاء فى الصبر وثواب الأمراض والأعراض]، وفى كنز العمال للمتقى الهندى ٣٢٧/٣ حديث ٦٧٨٣.

(٢) صحيح البخارى ٥٣٤/٢ حديث ١٤٠٠، باب [الاستعفاف عن المسألة]، وكذا فى صحيح مسلم ١٠٢/٣ حديث ٢٤٧١، باب [فضل التعفف والصبر].

(٣) سنن الترمذى ٦٠١/٤ حديث ٢٣٩٦، باب [الصبر على البلاء]، وسنن ابن ماجة ١٣٣٨/٢ حديث ٤٠٣١، باب [الصبر على البلاء].

(٤) شعب الإيمان للبيهقى ٢٩٠/٣ حديث ٣٥٧٤.

الزهد والعمل

ما الذى يضعف الإنسان فى أى صراع؟

الإجابة غاية فى البساطة: حرصه على الدنيا.

حرص الإنسان على التمسك بالحياة هو الذى يجعله ينهزم وينكسر فى المواقف الحاسمة. ولذلك فقد كان قواد المسلمين من أمثال خالد بن الوليد يُرْهِبُونَ أعداء الله بقولهم: "جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة والخمر".

وعندما أخبر الرسول ﷺ الصحابة بأنه: "سيأتى زمن توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها"، فقال قائل: "أمن قلة نحن يا رسول الله؟"، قال: "لا، بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينـزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن"، فقال قائل: "يا رسول الله وما الوهن؟"، قال: "حب الدنيا وكراهية الموت"[1].

إن سلاح الشهادة سلاح لا يمكن أن يضاهيه أى سلاح تمتلكه أمريكا أو إسرائيل.

وسلاح الزهد قوة لا تستطيع صراعات الدنيا إحناء رأس من يحملها.

أما إذا كانت تمتلكك الرغبات فى النيل من متع الدنيا فاعلم أنك مهزوم لا محالة.

والهزيمة التى نقصدها ليست الهزيمة من منظور المفاهيم النفعية الشائعة ولكن من منظور الوعى الإيمانى، وهى تعنى تفريط الإنسان فى مفاهيمه ومبادئه الإسلامية وتحوله إلى المعسكر الآخر من البشر معسكر الأشخاص الدنيويين النفعيين الذين لا يستهدفون من حياتهم إلا تحقيق أكبر قدر من الأرباح وإصابة المتع والملذات.

وكون هذه الأشياء غير مستهدفة من الإنسان الربانى فلا يعنى ذلك أنها محرَّمة عليه أو مكروهة فى حقه، غاية ما فى الأمر أنها لا تمثل شيئًا فى تحديد مسعاه، ولا تشكّل خطرًا

---

(١) جاء فى سنن أبى داود ١٨٤/٤ حديث ٤٢٩٩، باب [فى تداعى الأمم على الإسلام]، وفى شرح السنة للبغوى ٣٣٦/٧.

على انشغال قلبه بذكر الله والآخرة، فإذا توفرت له مع ذلك فلا يوجد أى مانع دينى يحول بينه وبينها.

وكثيرًا ممن يتحدثون عن الزهد فى الإسلام ويُرَغِّبونَ الناس فى الفقر يتجاهلون أن كثيرًا من الأنبياء والصالحين الذين ذكرهم القرآن كانوا ملوكًا أو امتلكوا الكثير من الثروات العظيمة، ولكنهم أقاموا حُكْمَ الله فيها مثل: يوسف، وداود، وسليمان، وأيوب صلى الله عليهم وسلم أجمعين، وذى القرنين وطالوت.

ولا بد من الاستقلال لتحقيق القوة فى مواجهة الآخرين، وتحقيق الاستقلال مرهون بالعمل، وكما جاء فى الحديث: "ما أكل ابن آدم قط خيرًا من عمل يده"[1].

والعمل بذاته هو نوع من الزهد.. الزهد فى الراحة والاسترخاء، والزهد فى التأنق والتكلف والابتعاد عن مظاهر التنعم التى تُقَوِّضُهَا مشاق العمل.

والمؤمن يتغلب على احتياجاته الملحة بجهاده فى الحياة بالعمل المتواصل، ويستطيع المؤمن من خلال الجهد الزائد والعمل الأكثر والإنفاق غير المسرف أن يتفوق فى تحقيق القوة الاقتصادية على كثير ممن يمارسون الأعمال السهلة غير الشرعية.

أى تحكم حياته هذه القاعدة: عمل أكثر إنفاق أقل؟.

وكما ذكرنا وسنذكر فى أكثر من موضع فإنه لا تعارض بين تحقيق هذه القوة والزهد فى الدنيا، وإن ما يجب على المسلم فى هذا العصر هو أن يحرر قلبه من الدنيا ويمتلكها فى يديه كقوة لها وزنها فى صراعه مع الحياة.

أنت تقدم الآخرة على الدنيا.

أنت لا تستهدف من حياتك تحقيق الثروات والمتع والملذات.

أنت تستقل بنفسك فى تلبية احتياجاتك.

أنت لا تحتاج إلى ما عند الناس بل قد تضاهيهم فيما يملكون من قوة اقتصادية.

إذن فأنت قوى ولن تنكسر لأحد.

* * *

---

(١) جاء فى صحيح البخارى ٢/٧٣٠ حديث ١٩٦٦، باب [كسب الرجل وعمله بيده]، بلفظ: (ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود ﷺ كان يأكل من عمل يده).

امتلاك القوة المادية

لا شك أن الصراع يحتدم الآن فى الواقع المعاصر بين الإنسان الربانى والإنسان النفعى (البرجماتى) الذى يجد فى نمط التفكير الأمريكى المرجعية المذهبية له. ولقد استطاع هذا الأخير أن يكتسح مواقع خصومه مثل: الإنسان الماركسى، والإنسان الوجودى، والإنسان القومى، ولم يبق على الساحة أحد يمثل قلقًا للهيمنة الأمريكية على العالم ونموذجها النفعى البرجماتى إلا نموذج الإنسان المسلم المتدين الواعى، أى: نموذج الإنسان الربانى الذى نتحدث عنه فى هذا الكتاب.

إنه الصراع الآن بين الإنسان الربانى الذى تنطلق كل أفعاله من استهداف مرضاة الله وثواب الآخرة، والإنسان النفعى الذى تنطلق كل أفعاله من استهداف أكبر معدل من الربح.

ولأن الإسلام دين واقعى فلا بد من الاعتراف بأن عجلة السيطرة المادية وما تحققه من مكاسب مستمرة هى القوة الأرضية المادية العظمى التى تقود فى هذه المرحلة الراهنة عجلة الأمور فى الواقع الذى نحياه.

هل يعنى ذلك التسليم بأن الإنسان الربانى منهزم لا محالة (حتى بالمعايير العامة) أمام الإنسان النفعى؟!

طبعًا من غير الحقيقة قول ذلك.

غاية ما فى الأمر أنه لكى ينتصر الإنسان الربانى فإنه يجب أن يكون إنسانًا ربانيًّا حقًّا لا جزئيًّا ولا مزيفًا، أى: أنه يجب أن يأخذ بشروط الربانية الحقّة ويتمثلها فى كل سلوكه وأفعاله.

والقاعدة العظمى التى أرستها الرّبّانيّةُ للانتصار فى أى صراع هى ما جاء فى هذه الآية الكريمة ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وهكذا جاءت كلمة (قُوَّة) مجردة من أى قيد، وعامة غاية العموم بحيث تتسع لتشمل كل قوة روحية ومادية على السواء.

والإنسان الرَّبانيُّ مُطَالَبٌ بامتلاك وإعداد ما يمكن استطاعته من هذه القوى الروحية والمادية على السواء. إن امتلاك القوة الاقتصادية أمر يوجبه الإعداد الذى أمرنا به القرآن، ولكن ليس باستهداف التهافت وراء تلبية الرغبات والغرائز والتطلعات المادية، ولكن هدف التمكين فى الأرض وإعلاء كلمة الله ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٢١).

كفى سذاجةً فإن الزهد فى الماديات وطرحها جانبًا لن يخدم إلا أعداء الله وليس دين الله. ثم ما هو المعنى الحقيقى للزهد؟ هو أن تملك وتقدر وتستطيع ولكنك تزهد فى كل ذلك بتفضيل الآخرة على الدنيا.

أما إذا كنت لا تملك ولا تقدر ولا تستطيع فإن ادِّعَاءَكَ الزهد ادعاء واهٍ تحاول أن تتستَّرَ به على عجزك.

نريد أن نمتلك بقدر الاستطاعة القوة المادية الفاعلة فى هذا الصراع؛ لأن هذا ما أمرنا الله به، بدلاً من التهاون فى العمل على امتلاكها ومن ثَمَّ قبول الهزيمة المحتومة والانحدار إلى ذيل التحكم فى هذا الوجود، وإلاَّ فكيف سنجعل كلمة الله هى العليا؟! كيف سنجعل الحاكمية لله فى هذه الأرض إذا كنا نحن لا نملك من أمر أنفسنا شيئًا بينما الماديون لهم السلطة العليا فى توجيه مسار حياتنا بامتلاكهم تلك القوة الاقتصادية ذات السطوة العليا فى هذا الزمان؟! والذى يمتلك هذه القوة هو المسلم الواقعىُ الواعى بحقائق دينه وواقعه على السواء.

نعم، لا بد أن تحرر من الدنيا قلبك، ولكن إذا كانت القوة الاقتصادية لها سطوتها الحاسمة فى هذا العصر فلا بد أن تمتلكها يداك.

ويظل الفرق الكبير حاسمًا بين الإنسان الرَّبانى الذى يمتلك تلك القوة من أجل التمكين لدين الله فى الأرض، وجعل كلمة الله هى العليا، والإنسان النفعى الذى يمتلك تلك القوة من أجل إرضاء سعيه فى تحقيق أكبر قدر من الأرباح وإصابة أكبر قدر من المتع والملذات.

* * *

الصدق والاستقامة

يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة: ١١٩).

ويقول الرسول ﷺ: "إن الصِّدْقَ يهدى إلى البرِّ وإن البرَّ يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يُكْتَبَ عند الله صدِّيقًا، وأن الكَذِبَ يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وأن الرجل ليكذب حتى يُكْتَبَ عند الله كَذَّابًا"[1].

وحين سأل هرقل أبى سفيان عن النبى ﷺ ماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان: يقول: "اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة"[2].

إن الصدق قوة ولا يلتجئ إلى الكذب إلا الضعفاء.

والالتزام الدائم بالصدق هو تدريب للنفس على القوة.

والتعود الدائم على الكذب يؤدى إلى إفقاد النفس لدعائم القوة.

إن الإسلام لا يعرف إلا الاستقامة.

الاستقامة فى انتهاج تعاليم الله وعدم العدول عنها استنادًا إلى أى مبرر.

الاستقامة فى الوعى بأحداث الحياة واستخلاص العِبْرَةِ منها.

الاستقامة فى السير على طريق الحقيقة، وعدم التهاون فى إحقاق الحق وإبطال الباطل.

الاستقامة فى الاحتفاظ بعزة النفس وكبريائها، والحفاظ عليها من الشروخ، والتصدع، ومن ثَمَّ من الانهيار.

---

(١) صحيح البخارى ٥/٢٢٦١ حديث ٥٧٤٣، وصحيح مسلم ٨/٢٩ حديث ٦٨٠٣، ٦٨٠٥، باب [قبح الكذب وحسن الصدق]، وفى سنن أبى داود ٤/٤٥٤ حديث ٤٩٩١، وفى مسند أحمد ٦/١٤٧ حديث ٣٦٣٨.

(٢) صحيح البخارى ١/٧ حديث ٧، باب [كيف كان بدء الوحى إلى الرسول ﷺ]، وفى رياض الصالحين ١/٦٢ باب [الصدق]، ومسلم ٥/١٦٣، ١٦٦ حديث ١٧٧٣.

والاستقامة أيضًا فى الرفق واللين والمرونة فى الظروف والمواقف التى تقتضى ذلك.

إن إحقاق الحق مهما نتج عنه من خسائر مبدئية فإنه لا يمكن مقارنة خسائره بالخسائر التى تنتج عن التضحية بالحق والتهاون مع الباطل بسبب الخوف أو حفاظًا على علاقة ما أو حفاظًا على عدم إصابة أحد بمكروه.

ونحن حين ندعو إلى هذه الاستقامة لا ندعو إلى أمر تحسينى يقبل المناقشة والجدل أو الاعتذار عنه من أجل الحفاظ على أمور أكثر ضرورة وإنما ندعو إلى أمر يستحيل افتقاده لدى المسلم الحقيقى.

واستقامة المسلم فى سلوكه أمر يجسد حقيقة إيمانه، وقدرته على الاستقلال والحرية والتمرد على ضغوط المفاهيم الجاهلية السائدة التى يدعمها طاغوت القهر الاجتماعى. فالمسألة غير قابلة للمساومة، فإما أن تكون مسلمًا حقًّا فتنتهج طريق الاستقامة فى وَعْيِكَ وسلوكك، وتتمرد على كل هذه المفاهيم، وتحافظ على استقلال ذاتك وسلامتها من الخوف والتخاذل، ومن ثَمّ من التمزق والشروخ والتصدعات، وإما أن تكون واحدًا من أفراد قطيع ذلك المجتمع تظل تتغاضى عن تمزقات نفسك حتى تصير مُعَدًّا تمامًا للذبح والالتهام فى أى لحظة.

ونحن لا نعنى بذلك عدم المرونة مع الأحداث، ولكن على الإنسان أن يعى أن المرونة فى هذه الأمور يُسْمَحُ بها فقط فى دائرة الأمور المؤقتة، وعند ذلك فقط تُحْسَبُ القواعد الشرعية فى المصلحة فى الترجيح بين أقل الضررين: الضرر الناتج عن التهاون فى الحق، والضرر الناتج عن التمسك به بحزم دون أن يعنى ذلك - كما يفعل الكثيرون - التهاون فى حقوق قد تبدو بسيطة الآن من حيث الأضرار التى ستنتج عن التهاون عنها بينما يترسب عن ذلك على المدى البعيد إهدار لحقوق أخرى أكبر منها، أو أن يؤدى ذلك التنازل المستمر فى الصراع القائم بين الحق والباطل إلى أن يُطْمَسَ الحق تمامًا ويَنْتَصِرَ عليه الباطل بشكل نهائى، أو أن تضيع الحقوق وتنتهب بلا رجعة، أو أن تستسلم النفوس لمصيرها فى الانكسار والتصدع بلا أمل فى إصلاح ما قد فَرَّطَتْ فيه منذ البداية.

* * *

صراع القيم الإسلامية فى الواقع المعاصر

وإذا قال لى البعض إننا لا نستطيع أن نواجه تحديات ذلك الواقع الذى نعيشه وندخل فى صراع مع أصحاب تلك القيم النفعية المسيطرين عليه ونحن نحمل تلك المفاهيم والقيم التى تتحدث عنها فى كتابك هذا.

أقول لهؤلاء: إنكم لصادقون.. فأنتم حقًّا لا تستطيعون حمل تلك المفاهيم والقيم ومعايشة أصحاب القيم النفعية على أساسها.. بله تحديهم بها، ولكن هذا لا يرجع لعيب فى قدرة هذه المفاهيم والقيم على المعايشة والتحدى والانتصار ولكن ذلك يرجع إلى ما وصل إليه حال نفوسكم من ضعف ووهن. إن تلك المفاهيم والقيم لا يستطيع أن يحملها ويتدرعها سلاحًا إلا من أقام حقيقة وجوده على ركائز القوة فى الإسلام فهل أنتم امتلكتم الإيمان الحقيقى بالله؟ هل شعرتم دائمًا أنه أقرب إليكم من حبل الوريد؟

هل تقربتم إلى الله بالعبادة والدعاء واستعنتم به فى كل أموركم؟

هل حفظتم الله كى يحفظكم؟

هل توكلتم على الله كى يكون حسبكم؟

هل جعلتم رضا الله غايتكم وقدمتم الآخرة على الدنيا؟

هل تدبرتم سنن الله فى الأرض وأخذتم بالأسباب فى كل أعمالكم؟

هل أعددتم لأعدائكم كل ما استطعتم من قوة؟

هل رضيتم بالقليل الذى يستر حاجاتكم ويغنيكم عن المسألة؟

هل زهدتم فى كل فضل يزيد عن حاجاتكم من متاع الدنيا ونظرتم إلى زينتها نظرة العَالِم المُتيَقِّنِ من مآلها المزرى؟

هل حاولتم التفقه والتعمق فى أمور دينكم ودنياكم؟

إذا لم تكونوا قد فعلتم شيئًا من ذلك فإنه لن ينفعكم فى شىء تعلمكم لتلك المفاهيم والقيم التى أتحدث عنها، ولهذا فأنتم مهزومون لا محالة.

وهل من الممكن التشكيك فى تلك المفاهيم وقدرتها على مواجهة تحديات الواقع المعاصر والانتصار عليه ما دامت مُسْتَمَدَّةً من هدى الله.

إن أى تشكيك فى ذلك هو نفى لإيمان الإنسان، ولكن لا تظهر قدرة هذه المفاهيم والقيم على المواجهة والانتصار إلا لدى من عملوا على احتمالها.. إلا لدى من اعتصموا بحبل الله وتحصّنوا بتعاليمه.. أما من لم يستطيعوا أن يتحرروا من أسر معتقداتهم الجاهلية الباطلة.. أما من لم يستطيعوا أن يتحرروا من كبر أنفسهم وَصَلَفِهَا الذى يَهْوِى هم إلى أرضى أرضين وأسفل سافلين.. أما من لم يستطيعوا أن يتحرروا من شهوات الدنيا ومطامعها فإنهم لا يستطيعون حقًا حمل هذه المفاهيم والقيم ومواجهة أصحاب القيم النفعية بها.

* * *

٢- الوعى الإيمانى
فى مواجهة الوعى الزائف

هل نستمد قيمنا من الله أم من الطاغوت؟!

الله أكبر من كل قوة.

الله أكبر من كل خوف.

الله أكبر من كل سلطة.

الله أكبر من كل وهم.

الله أكبر من أى انكسار.

الله أكبر من أى هزيمة.

الله أكبر من كل شيء.

لا إله غيره ولا معبود سواه.

هو الخالق من العدم وهو الواحد الفرد الصمد.

هو المعين وهو الرحيم وهو الرازق المعطى الكريم.

إياه نعبد وإياه نستعين.

وإياه وحده نطيع.

ولا حاكم لنا سواه.

خلقنا أحرارًا وجعل رضاه فى إفراده بالعبودية.

جعل رضاه فى (لا إله إلا الله).

جعل رضاه فى تمسك الإنسان بتلك الحرية.

وجعل غضبه فى التفريط فيها لأى متألّه كاذب مزعوم.

جعل رضاه فى طاعته وحده.

وجعل غضبه فى إذلال الإنسان لنفسه بطاعته لسواه.

جعل حرية الإنسان بإفراده وحده بالعبودية هى الإيمان.

وجعل انسحاق الإنسان بالرضوخ فى عبودية غيره هو الشرك.

لا قيدًا للإنسان فى هذا الوجود إلا قيد وضعه الله.. ولا حدًّا لانطلاق حريته إلا حدٌّ وضعه الله.. ولا حرام فى هذا الوجود إلا حرامٌ حَرَّمَهُ الله.

إننى دائمًا أتساءل:

إذا كان الله قد أحل شيئًا فمن فى هذا الوجود يملك تحريمه وهو يعلم أن الله لن يحاسبه على هذا الفعل؟!!!...

ما يريده الله هو المعيار الوحيد للحكم على الأشياء.

فلا تقل لى لا تفعل هذا الشىء، هذا عيب هذا أمر يأباه المجتمع، هذا أمر يصطدم مع التقاليد والعرف، وهذا أمر لا يتفق مع (البرستيج) قل لى شيئًا واحدًا، هل هذا الشىء حلال هو أم حرام؟ فإذا لم يكن هذا الشىء حرامًا فلا يحقُّ لك أبدًا أن تنهانى عن فعله.

هناك مطلع لأحد الأناشيد التى يرددها الإسلاميون يقول:

لا نؤمن أبدًا بحدود ∴ لا نخضع أبدًا لقيود

إن هذا المطلع يعبِّر تعبيرًا رائعًا عن حقيقة موقف المسلم الواعى من كل القواعد والقيم الموجودة فى العالم. ومن المفهوم طبعًا أن المقصود هو أننا لا نؤمن أبدًا بحدود، ولا نخضع أبدًا لقيود غير الحدود والقيود المُستَمَدَّة من ديننا.

وهذا الذى ذهبنا إليه ليس اجتهادًا منَّا، وإنما هو ما أعلنه القرآن بكل صراحة وحسم.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ (الأنعام: ١١٤).

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (الشورى: ٢١).

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران: ٨٣).

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (يوسف: ٤٠).

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٥٠).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (النساء: ٦٠).

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾

(النجم: ٢٣).

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنعام: ١١٦).

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ ﴾

(المؤمنون: ٧١).

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

فأى حدود اصطنعها البشر أو تَوَهَّمُوهَا يمكنها أن تَحُدَّ من تصرفاتنا أو من سلوكنا؟!!

أو أى قيود من الممكن أن تخضع لها إرادتنا وتصاب بالعجز والشلل أو الانهزام والتخاذل إذا لم يكن الله الحاكم الوحيد للوجود هو الذى وضع هذه القيود؟!!

إن قوة الانطلاق الإيمانى تبدأ من هنا.

(الاستسلام التَّامُّ لأحكام الله والتمرُّدُ التَّامُّ على كل أحكام وأوهام البشر).

وتمرد المسلم على كل هذه الأحكام والأوهام والخرافات التى يريد أن يجبره المجتمع عليها هو جهاد له ضد الطاغوت.

* * *

المفاهيم والقيم الإسلامية
والأعراف والتقاليد السائدة

هناك مفاهيم زائفة أُلصِقَتْ بالإسلام منذ أزمنة قديمة حتى أن الكثير من النـــاس- إن لم يكن أغلبهم - يعتقدون أنها تمثل الإسلام بينما هو منها براء.

ومصيبة المصائب أن هذه المفاهيم التى تعادى إنسانية الإنسان وتعوق أى تقدم حضارى له، تُحْسَبُ من جانب أعداء الإسلام عليه ويستغلونها فى تشويه صورته الإنســـانية أمـــام شعوب العالم.

لذلك فإنه لا يجدى مع هذه المفاهيم بمجرد الحوار الفكرى، وإنما يجب لتحديها حدوث الانفجار الفكرى.

وهذا الانفجار الفكرى المطلوب إن كان شديد الصعوبة فى نطاق الحياة الفكرية، فإنـــه بالغ الخطورة والصعوبة فى نطاق الحياة الاجتماعية. إن مخالفة المألوف أمر ليس بساهين ولا بالبسيط ولكن يمكن تمثيله بنوع من المعارك. والقاعدة الراسخة فى ذلك يعبر عنها المثـــل الشعبى (اللى يخالف المألوف يستاهل ضرب الكفوف).

فمحاربة المألوف لا تجلب عليك محاربة أعدائك فقط، بل غالبًا ما ينتج عنـــها تخلـــى الكثيرين من أصدقائك عنك، بل وتحولهم إلى أعداء.

إن مجرد مخالفة الإنسان لما هو شائع من الأمور يجعل المجتمع يحكم على ســـلوكه بأنـــه خطأ أو حرام.

واستمرار هذه القاعدة فى مجتمع ما يعمل على ترسيخ الجهل والانحطاط وكافة المساوئ الاجتماعية المدمرة.

فكيف يكون السلوك الشائع فى مجتمع يعانى من الجهل والفساد والظلم هـــو الســـلوك

الصحيح؟ فلا شك أن السلوك الشائع فى مجتمع جاهل وظالم وفاسد هو سلوك جاهل وظالم وفاسد أيضًا، وعلى ذلك فإن السلوك الصالح الذى يجب أن ينشده هذا المجتمع لكى يخرج من أزمته لا بد أن يكون سلوكًا غريبًا عما أَلِفَ من سلوكيات فاسدة.

والتقيد بالمفاهيم الاجتماعية فى السلوك والعادات والتقاليد أمرٌ مناقضٌ للتطور الحضارى للبشر ولذلك فإن الأوروبيين يعتبرون التقيد بمثل هذه الأمور ضربًا من الجنون وتعبيرًا صريحًا عن مدى التخلف العقلى والاجتماعى لأنه ليس من المعقول أن يتخلى الإنسان عن أمر فيه صالحه لمجرد أنه سوف يتسبب فى استياء المجتمع منه لأن سلوكه غير شائع اجتماعيًّا؟!...

ونحن لا نقصد بذلك محاربة المألوف فى ذاته، لأن المألوف أو العرف يكون مقبولاً إذا كان يتعرض لتفاصيل حياتية تختلف باختلاف البيئات والأحوال والأماكن والأزمان ولم تكن مخالفة فى شىء من ذلك لشرع الله أو مفاهيم وقيم الإسلام أو حتى الروح العامة له.

أما إذا كان المألوف والعرف هو مجرد اعتقادات شركية كالاعتقاد بقدرة الأولياء والاستعانة بهم والتمسح بأضرحتهم، أو تصورات جاهلية خرافية كالتطير والتشاؤم من بعض الأشخاص أو الطيور أو الحيوانات، أقول إذا كان المألوف أو العرف هو شئ من ذلك فإن ضرورة محاربته تكون أمر حتمى لا مفرّ منه.

وإذا كان المألوف أو العرف يمثل قهرًا لإنسانية الإنسان وحريته مثل الخضوع لظلم الظالم أو السكوت على الباطل المدجج بالقوة أو المبالغة فى سلطة من السلطات مثل سلطات الأخ الأكبر مثلاً إلى الدرجة التى يسلب فيها أموال باقى إخوته ويستحفظ على إرادتهم، فإنه يجب أن يواجه بنفس الموقف السابق.

وإذا كان المألوف أو المعروف هو الحرمان الاجتماعى للأرملة أو المطلقة من حقها الشرعى فى الزواج بحيث يجعل الزواج منها أمرًا مشينًا أو يجعل عزوفها عن الزواج مجدًا اجتماعيًّا مزعومًا، فإن أنسب مكان لذلك العرف هو الجحيم.

وإذا كان العرف هو أن لا يتزوج الابن الأصغر قبل الابن الأكبر أو البنت الصغرى قبل البنت الكبرى، أو لا يقدم لفتاة ما مَهْرٌ للزواج إلا بنفس القدر الذى يقدم لقريباتها، وكذلك التقاليد التى تجمع بين الاعتقادات الجاهلية الباطلة وبين تبديد طاقات الإنسان

وتكبيل حريته مثل الذكرى الأسبوعية للميت، وذكرى الأربعين، والذكرى السنوية.. وفرض الأحزان فرضًا على الأهل والأقارب، والوقوف فى وجه ما أحله الله من الطيبات وخصوصًا ما يتعلق بعقد العقود وإقامة الأفراح.

وكذلك الأعراف والتقاليد التى تجعل كبار السن منفردين وحدهم بإدراك الحقيقة والحكمة والتمتع بالسلطة وتوجيه دفة الأمور فى المجتمع وإن امتلأت نفوس الكثيرين منهم بالشروخ والتصدعات التى أصابتهم بها كثرة هزائمهم فى الحياة واجتمع فيها الجهل والشيخوخة والعجز والإحباط وهو ما له أثره الكبير على آرائهم ومواقفهم التى تتسم عادةً بالجهل والسلبية.

إنها آراء (العواجيز) التى كم تحكمت فى القرى والنجوع والأحياء والضواحى فأطفأت براكين حماس، وعطلت برامج إصلاح، وميعت قضايا وحقائق، وأحنت رءوسًا غرًّاء، وأقرت مظالم وحرمات، ومهدت بوجه عام الأرض للظالمين يعيثون فيها فسادًا.

أما إذا اجتمع العلم مع خبرة السنين فى رجال أشداء أكسبهم تجديهم وصمودهم لنوازل الأزمان الحكمة والصلابة والشموخ فنعم القادة والقدرة هم وما أندرهم.

وكذلك العادات والتقاليد التى تثقل كاهل الناس بما لا يطيقون، أو تُعَقِّدُ العلاقات المقامة بينهم ومع ذلك يرضخون لها على الرغم مما يصيبهم بسببها من خسائر.

مثال ذلك ما يتحمله أولياء الأمور من نفقات أوجبتها المناسبات التى يحتفل بها المجتمع بشكل استهلاكىّ مثل رمضان والعيد والمولد النبوى. وكذلك ما يتحمله الخاطب من هدايا ونفقات فى تلك المناسبات والمناسبات الشبيهة لها، هذا ناهيك عن المبالغة فى التكاليف الأساسية للزواج نفسه.

وكذلك فهناك الأعراف السائدة التى تبالغ فى حقوق معينة وتعمل على التوهين من حقوق أخرى؛ فتؤدى إلى استبداد أصحاب الحقوق الأولى، واستعباد أصحاب الحقوق الثانية مثل المبالغة فى حقوق الحاكم والتوهين من حقوق المحكوم، والمبالغة فى حقوق الزوج والتوهين من حقوق الزوجة.

وإذا كانت الحقائق والاعتقادات والقواعد الحاكمة للعلاقات الأساسية فى المجتمع وكذلك معايير الصواب والخطأ، والنافع والضار، والنجاح والفشل، والضوابط الأساسية

لتحديد القيمة الاجتماعية للآخرين كل ذلك يُستَقى من النساء المتقدمات فى السن بما يترسب داخل نفوس أغلبهن من عُقَدٍ وخرافات ومفاهيم جاهلية، فهل من الممكن أن ننتظر من أبناء هؤلاء أن يقودوا مجتمعنا إلى الصحوة الحضارية المنتظرة بينما اللاتى تقمن على تشكيل وعيهم الداخلى أمثال تلك السيدات؟!!.

وإذا كان المألوف أو العرف بوجه عام طرقًا نمطية فى التفكير العقلى تعوق التطور الطبيعى فى طرق التفكير وتحجب عن وعيه الرؤى الصحيحة، فإن حركة تقدم المجتمع تكون رهنًا لمدى إصرارنا على نسف هذه المفاهيم والتقاليد والأنماط العقلية التى تعوق مسيرته.

إنه قد يكون للإنسان هدف مصيرى، وقد يكون تحقيقه ممكنًا، بمثابة ١+١=٢، هذا من حيث الدين ومن حيث الواقع ومن حيث المنطق ومن حيث القدرة.

بل قد يكون ضرورة تحقيق هذا الهدف بمثابة الحياة أو الموت بالنسبة لأطرافه وعلى الرغم من سهولة تحقيق هذا الهدف من كل الزوايا السابقة إلا أن البعض قد يجعل منه أمرًا مستحيلاً!!... لماذا؟!.

لأن المجتمع يرى فى ذلك أمرًا غريبًا.. أمرًا شاذًا.. لماذا؟!.

لأنه ليس أمرًا مألوفًا بالنسبة للمجتمع.. بل أمرًا جديدًا أو يندر حدوثه!!!....

يا سبحان الله: أتجعلون الحلال حرامًا، وما يحكم به العقل والمنطق جنونًا، وما يجعل الواقع ضرورة تحقيقه بمثابة الحياة والموت أمرًا هينًا.. كل ذلك لسبب واحد هو أن هذا الأمر غير مألوف بالنسبة للمجتمع!!!...

وأى عقول تلك التى يمكنها أن ترضخ لمثل تلك المفاهيم، وتهدر أعمارها عبثًا من أجلها؟!. ما أسخفها وما أضعف النفوس التى تحملها!!!!...

ولعل من المفيد أن نوسع هنا من مفهوم التحرر من التقاليد هذا إلى أقصى حد ممكن، فلا نكتفى بالتقاليد الاجتماعية، ولكن بوجوب التحرر من كل الصور النمطية فى التفكير العقلى. فالعامل الذى ينتج سلعة ما لا بد أن يبحث عن وسيلة أكثر تطورًا لإنتاجها فى شكل أفضل وأسرع أو بخامات أقل تكلفة أو بكل ذلك معًا.

وبالنسبة للطالب فعليه أن يخرج عن ذلك النمط التقليدى فى استيعاب دروسه، وعليه أن يكتشف أفضل الوسائل التى يستطيع بها اكتساب أكبر قدر من المعلومات فى أقل وقت

ممكن، فلا يكون تحصيل الدروس بالنسبة له مجرد قضاء وقت طويل أمام الكتب.

والمرأة التي تطهو الطعام لكي تكون امرأة مختلفة عن غيرها من النساء الرقيقات عليها أن تبحث عن أفضل الوسائل في طهي الطعام في أقل وقت وأفضل جودة وأقل تكلفة.

أما استيعاب أفضل الوسائل لتربية الأطفال وابتداعها، والخروج عن النمط التقليدي للتربية المستمد من العرف الاجتماعي، والذي يجمع مع حسناته القليلة الكثير من العُقَد والأمراض النفسية المترسبة، والمفاهيم الجاهلية السائدة، فإن ذلك أمر يحتاج إلى الكثير من البحث والجهود والدراسة.

وهذا التمرد على الأنماط التقليدية في التفكير تتضح أهميته عند التعرض لقضية ما أو لمشكلة من المشاكل. فهنا تتميز العقول الناضجة المتطورة عن العقول النمطية التي تنطلق من الأساليب التقليدية في التفكير.

إن المفهوم الشائع عن الإنسان الذكي العاقل أنه هو الشخص الذي إذا تعرض لمشكلة ما فإنه يستطيع أن يخرج منها بالحلول السليمة التي يتوقعها ويرضى عنها الجميع. بينما المفهوم الحقيقي للإنسان الذكي العاقل الواعي هو أنه الشخص الذي يستطيع أن يخرج بالحلول السليمة لمشاكل يكاد يستحيل حلها من وجهة نظر المجتمع، وإذا تعرض لمشكلة تقليدية من النوع السابق فإنه يحقق فيها نتائج تفوق كثيرًا ما يتوقعه منه التفكير النمطي للمجتمع.

* * *

موقف الإسلام من الأعراف والتقاليد

إن موقف الإسلام من الأعراف والتقاليد واضح وحاسم، يقول الله ﷻ فى القرآن الكريم:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٤).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (لقمان: ٢٠- ٢١).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (يونس: ٥٩).

فنحن إذا دعينا إلى الاعتراك مع المألوف فنحن ندعو إلى الاعتراك مع تصورات ومفاهيم زائفة عن الإسلام ومواقفه من العلاقات الاجتماعية السائدة والتى ترسخت فى أذهان الناس وكأنها مُسَلَّمَاتٌ لا تقبل الجدل والنقاش بتطاول الزمان عليها.

يقول أحد أئمة المسلمين عن دعوة (لا إله إلا الله) إنها جعلت "الذين ورثوا التقاليد عن آبائهم واتبعوها وعكفوا عليها كأنها أوثان بنفسها أحسوا بالخطر الداهم على تلك العادات العريقة".

بل إن هناك الكثير من السلوكيات الاجتماعية التى وإن يدرك الكثيرون مدى تجافيها مع الدين، ولكن نظرًا لاطّراد صدورها عن الناس فقد فقدت ما كانت تقابل به من استياء لديهم حتى صارت أمرًا مقبولاً له مصداقيته الاجتماعية المصحوبة بأى مبرر يمكن ادعاؤه مثل الضرورة أو تغير العصر أو يسر الدين. وبمرور الأيام تصبح هذه الأمور المجافية للدين

والتى كانت تقابل بالاستياء هى ذاتها قاعدة احتماعية يواجه من يعتدى عليهـا بالإدانـة والحرب من فئات المحتمع المختلفة.

والأمر سيصير أكثر تعقيدًا عندما تجتمع مع تلك المفاهيم والتقاليد الجاهليـة المفـاهيم والقيم النفعية الغازية فى دائرة الضغط الاقتصادى الطاحن.

فالنفعيون (البرجماتيون) الذين يتمثلون تلك القيم سيعملون علـى تـدعيم المفـاهيم والتقاليد الجاهلية التى تتفق مع مصالحهم. ومن الطبيعى أن يكون من مصلحة هـؤلاء أن تتحكم فى عقول الناس الخرافات والأوهام التى تطمس قدرًا كبيرًا من وعـيهم، وبـذلك يسهل انقيادهم إلى الأهداف التى يسعى إليها. كما أنه من مصلحة هؤلاء أيضًا أن تتحكم فى سلوكيات الناس تلك العُقَدُ الاحتماعية التى ما أنـزل الله بها من سلطان والتى لها أثرها الكبير فى نفوسهم وتقييد إرادتهم وإعاقة حركاتهم، وبذلك يكونون هم الســابقين إلى أى غاية يشتركون مع الناس فى الصراع عليها.

ولذلك تجد فى هذه الأوساط التى تختلط فيها المفاهيم النفعية بالتقاليد الاحتماعية البالية أن هؤلاء النفعيين يقيمون حروبًا شعواء إذا أراد أحدٌ أن يكسر تلك التقاليد ولم تكن لهم مصلحة يبغونها هم، فإنهم يدوسونها بالأقدام.

أى أن النفعيين يستغلون تلك التقاليد فى محاربة الناس ومحاكمة السُّذَّج منهم بها، أمـا بالنسبة لهم فإن الحفاظ عليها أهون عليهم من تفويت غاية يبتغونها، ويا ضيعة المغفلـين!! الذين يستسلمون لتحكم التقاليد فى مصائرهم فى هذا الزمان.

أما الظروف الاحتماعية الطاحنة وما نتج عنها من انكباب الناس حول تـوفير أشـد الحاجات المعيشية الضرورية لهم، فقد أدت إلى سقوط الناس فى غمـرة الغيـاب العقلـى وفقدان القدرة على التعلق بأى أمر من الأمور لا علاقة له بتلك الحاجات المعيشية المُلِحَّـة والتى لا تخرج فى الغالب عن توفير المأكل والمشرب والمأوى.

وهذا الغياب العقلى أدى بدوره إلى أشياء غاية فى التعقيد والتناقض نتيجـة التـردى اللاواعى لمفاهيم جعل منها الإعلام الموجه تقاليدًا ثابتة وأوضاعًا ذات شـرعية احتماعيـة مؤكدة، فترى مثلاً طبقات احتماعية يفترض فيها الوعى العقلى مثل خريجـى الجامعـات يدافعون عن مفاهيم وتقاليد احتماعية رائجة ليس فقط ما أنـزل الله بها مـن سـلطان،

ولكنها تتناقض تناقضًا صارخًا مع مصالحهم فكأنهم صاروا بذلك أعداءً لأنفسهم.

والإسلام الحقيقى يعنى التسليم التام لله فى كل الأمور، أى: التسليم لمفاهيم الإسلام وتعاليمه وشرائعه والذوبان فيها لكى تعيد تشكيل الإنسان تشكيلاً جديدًا مستقلاً ومتناقضًا مع الواقع النفعى الذى يحاصره الآن من كل الجهات.

وامتلاك الإنسان لهذا التكوين الإسلامى الحقيقى مع امتلاكه للوعى الناضج بمتغيرات العصر، والقدرة على تجسيد الإسلام لذلك الواقع المُعَاش تجسيدًا راشدًا، بالإضافة إلى الإرادة الإيمانية الصلبة، كل ذلك يجعله بأى حال من الأحوال لا يقبل أن يكون مجرد فرد فى قطيع من البشر الذين يشكلون ذلك المجتمع، ويرتضون بما يحكمه من تقاليد وقيم، مثلهم فى ذلك مثل الشياه التى ترتضى ما يقدم لها من كلأ وهى فى الحقيقة تغذى لكى تساق إلى الذبح.

فضلاً عن استحالة استقلال النفس عن المفاهيم والتقاليد الاجتماعية التى تفرض نفسها على كل أعضاء المجتمع، فإن معاشرة الناس وتحمل أذاهم هو الأمر الأكثر صلاحًا من وجهة نظر الدين نفسه؛ لأن المؤمن الذى يعاشر الناس ويتحمل أذاهم خير من المؤمن الذى لا يعاشر الناس ولا يتحمل أذاهم كما جاء فى الحديث النبوى. أى أن العراك مع هذه المفاهيم والتقاليد أمر حتمى لا مفر منه[1].

وإذا كانت هذه التصورات والمفاهيم والتقاليد الجاهلية بما تؤدى إليه من تشويه للدعوة الإسلامية النقية وإصابة سلوكيات المسلمين بالتعقيدات والإحباطات التى تعيق وتصدع نفوسهم؛ فإن كل ذلك يجعل التحدى الاجتماعى الذى ندعو إليه لا يكون فرضًا دينيًّا فقط، وإنما جهاد بالقول والفعل والسلوك، وهل يكون هناك جهادٌ بغير السيف أكبر من جهاد تلك العقائد والتصورات والمفاهيم والتقاليد والقيم الجاهلية؟!

وعلى ذلك، فإن من يرد القيام بذلك التحدى الاجتماعى عليه أن يعى جيدًا أن الأمر يعنى الدخول فى معركة شرسة يجب الاستعداد لها وقبول نتائجها وعقد العزم على مواصلة الجهاد والمثابرة فيها بدلاً من أن يفاجأ على غير توقع منه بإعلان المجتمع الحرب عليه لمجرد

---

(١) ولكن عند اشتداد الفتن يجب اتباع قول الرسول ﷺ - فيما معناه - "فليسعك دارك ولتبك على خطيئتك" ولهذا يجب الإقرار باختلاف التوجيه باختلاف أحوال المجتمعات وهنا يكون الخلاف كبيرًا بين ما يجب توجيه الناس به عام ١٩٩٢ (عام الطبعة الأولى) وبين ما يمكن توجيههم به عام ٢٠٠٩ (عام هذه الطبعة).

تحديه لتلك المفاهيم والتقاليد الاجتماعية.

وكون أن الأمر يعنى الدخول فى معركة تتطلب الجهاد فإن ذلك لا يعنى أن التحدى الاجتماعى عمل ثورى انقلابى حماسى لا يَحْسِبُ للأمور حسابها، لكنه عمل يتطلب من الذين يقبلون مشاق تلك المعركة التخطيط والترتيب والإعداد لها بحسابات خاصة غير تقليدية، وفى نفس الوقت فإنه عمل يتطلب الاستعداد لبذل المزيد من الجهد والتضحيات وادخار أكبر قدر من التماسك وشحذ أكبر قدر من الجرأة.

فليس من المنطقى أن تحارب التقاليد بوسائل وحسابات تقليدية، وإنما يجب فى من يتحدى التقاليد أن يكون النمط العقلى لتفكيره أصلاً غير تقليدى، كما أن الأمر يتطلب أكبر قدر من الثقة بالنفس، والاستناد إلى الإيمان بالله والتوكل عليه، وعدم الركون إلى الجهلاء، أو إلى الذين ظلموا، وإنما الركون إلى أهل الوعى والتحدى من المؤمنين.

* * *

العلاقة بين السلبية والضعف والخمول والخضوع للأعراف والتقاليد

إن ارتضاء الإنسان الخضوع للتقاليد والأعراف التي تكبله بها كلمات الناس ونظراتهم إليه، وكذلك خضوعه لكل ما هو عادى تقليدى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بما تحمله شخصيته من خمول وضعف وخور وفتور وافتقاد للجرأة والشجاعة، وما تحمله من انكسار داخلي وعجز اجتماعي ومحدودية ذكاء، وهو ما يؤدى إلى الحنق والحقد والحرب الشعواء علـى الأقويـاء الذين استطاعوا تحطيم العوائق التي لم يستطع هؤلاء مجرد الطموح إلى الصراع معها.

فكيف من الممكن أن يكون مقبولاً أن يجعل هؤلاء من أنفسهم حـائلاً أمـام تقـدم العباقرة والثوار والمصلحين؟!! وكيف يُرْجَى لمجتمع أن يتقدم إلى الأمام ما دامـت تحكـم قواعده الاجتماعية تلك المفاهيم الباطلة التي يمليها العجز النفسي لهؤلاء؟!!

إن الذين يحافظون على التصورات والتقاليد الاجتماعية إما نفعيون يستغلونها لتحقيـق مآربهم، أو بلداء خاملون محدودو الذكاء يتصيدون الأخطاء للأقوياء وينفثون عن حقدهم بإعلان الحرب عليهم لتحديهم تلك التصورات والتقاليد الباطلة.

هذا، ناهيك عن القاعدة التي تقول: "إن الناس أعداء ما جهلوا".

إن الذين ظلموا الذين ارتكنوا إلى هذه المفاهيم الجاهلية التي تخدم مصالحهم لن يسـهل عليهم ذلك التحدى، إنه يدينهم ويكشف سوءات نفوسهم ويفضح سوء عملهم الـذى تستره سيادة تلك المفاهيم والتقاليد على الأوضاع الاجتماعية وكسبها المشروعية الـتي لا يجوز لأحد تحديها.

إن الذين يعيشون فى اللامشروعية الحقيقية لا بد أن يتستروا فى المشروعية المزيفة لتلك التقاليد؟؟؟؟، ولذلك فإنهم لن يدخروا جهدًا فى محاربة من يحاول تحديها

والانهزاميون من الناس لن يكون من الهيّن عليهم قبول غيرهم لذلك التحدى، خصوصًا فى الأمور التى تقرر القواعد الاجتماعية التقليدية أمام كل من يحاول تحديها بـالجنون. إن ذلك لا يثير الحقد فى قلوب هؤلاء فقط، ولكنه يفضح ضعفهم الذى كان يتستر فى كون التخاذل أمام هذه الأمور هو القاعدة العامة التى لا يستطيع أحد الخروج عنها.

والذى يحدث أن من يحملون الجهل والضعف إذا قبل من يحملون العلم والتحدى الحوار معهم فإنهم لن يكتفوا بذلك بل سيظلوا يتهمونهم بالانحراف والغباء، بل والجنون أحيانًا بدلاً من أن يقدروا محدودية وعيهم فى استيعاب ما يفعله هؤلاء أصحاب النظرة الأبعد والأعمق عن نظرتهم التقليدية للأمور التى يغترّون بمصداقيتها فى كشف العواقب القريبة للأمور والتى تحول بينهم وبين كشف العواقب الوخيمة فى المدى البعيد، وبدلاً من أن يقدروا تواضع قوتهم المتخاذلة أمام كل طموح غير تقليدى بالنسبة لما يفعله هؤلاء أصحاب القوة المتحدية المجاهدة.

* * *

الآثار المدمرة لضغط التقاليد على الإنسان

إن التوترات التى نعانى منها بسبب القيود المصطنعة التى أثقلت بها كاهلنـــا العــادات والتقاليد هى إرهاص دائم للانفجار، انفجار الإنسان المتنازل دائمًا، المتخاذل دائمًا.

الإنسان القلق المرعوب أمام أى محاولة لتغيير الخطأ قد تؤدى إلى أى صدام مع المجهول لا تحمد عواقبه.

ولن يؤدى الارتضاء الدائم للأخطاء الظالمة من الغير إلا إلى إصابة الناس بالمزيـــد مـــن الإحباطات والانكسارات، وهكذا يصير نسيج الترابط الواهن الذى يجمع بين الشـــخص والآخر الذى يرغم نفسه والأمر على تحمله هو أقرب ما يكون إلى المشنقة.

وحقيقة الحياة نفسها تختزل إلى اللهاث المرير وراء معالجة الشروخ التى تتداعى دائمًـــا حتى تصير صدوعًا لا تصيب الحياة فقط وإنما تصيب النفس ذاتها وتضـــعها علــى حافـــة الانهيار بشكل مستمر.

وهكذا يظل هؤلاء يعانون من التوتر الدائم الذى يعرضهم للانفجار فى أية لحظة.

إن الإسلام لا يعرف كل هذا الهراء والانكسار والعبث والضياع الذى تمليه النفـــوس الضعيفة المتخاذلة من أجل تبرير الخضوع للأعراف والتقاليد السائدة.

إن الإسلام لا يعرف إلا الاستقامة.

الاستقامة فى انتهاج تعاليم الله وعدم العدول عنها استنادًا إلى أى مبرر.

الاستقامة فى الوعى بأحداث الحياة واستخلاص العِبْرَة منها.

الاستقامة فى السير على طريق الحقيقة، وعدم التهاون فى إحقاق الحق وإبطال الباطل.

الاستقامة فى الاحتفاظ بعزة النفس وكبريائها، والحفاظ عليها من الشروخ، والتصدع، ومن ثَمَّ من الانهيار.

والاستقامة أيضًا فى الرفق واللين والمرونة فى الظروف والمواقف التى تقتضى ذلك.

إن إحقاق الحق مهما ينتج عنه من خسائر مبدئية فإنه لا يمكن مقارنة خسائره بالخسائر التى تنتج عن التضحية بالحق والتهاون مع الباطل بسبب الخوف أو حفاظًا على علاقة ما أو حفاظًا على عدم إصابة أحد بمكروه.

ونحن حين ندعو إلى هذه الاستقامة لا ندعو إلى أمر تحسيني يقبل المناقشة والجدل أو الاعتذار عنه من أجل الحفاظ على أمور أكثر ضرورة وإنما ندعو إلى أمر يستحيل افتقاده لدى المسلم الحقيقى.

واستقامة المسلم فى سلوكه أمر يجسد حقيقة إيمانه، وقدرته على الاستقلال والحرية والتمرد على ضغوط المفاهيم الجاهلية السائدة التى يدعمها طاغوت القهر الاجتماعى. فالمسألة غير قابلة للمساومة، فإما أن تكون مسلمًا حقًا فتنتهج طريق الاستقامة فى وَعْيك وسلوكك، وتتمرد على كل هذه المفاهيم، وتحافظ على استقلال ذاتك وسلامتها من الخوف والتخاذل، ومن ثمَّ من التمزق والشروخ والتصدعات، وإما أن تكون واحدًا من أفراد قطيع ذلك المجتمع تظل تتغاضى عن تمزقات نفسك حتى تصير مُعَدًّا تمامًا للذبح والالتهام فى أى لحظة.

ونحن لا نعنى بذلك عدم المرونة مع الأحداث، ولكن على الإنسان أن يعى أن المرونة فى هذه الأمور يُسْمَحُ بها فقط فى دائرة الأمور المؤقتة، وعند ذلك فقط تُحْسَبُ القواعد الشرعية فى المصلحة من حيث الترجيح بين أقل الضررين: الضرر الناتج عن التهاون فى الحق، والضرر الناتج عن التمسك به بحزم دون أن يعى ذلك - كما يفعل الكثيرون - التهاون فى حقوق قد تبدو بسيطة الآن من حيث الأضرار التى ستنتج عن التهاون عنها بينما يترسب عن ذلك على المدى البعيد إهدار لحقوق أخرى أكبر منها، أو أن يؤدى ذلك التنازل المستمر فى الصراع القائم بين الحق والباطل إلى أن يُطْمَسَ الحق تمامًا وينصر عليه الباطل بشكل نهائى، أو أن تضيع الحقوق وتنتهب بلا رجعة، أو أن تستسلم النفوس لمصيرها فى الانكسار والتصدع بلا أمل فى إصلاح ما قد فَرَّطَتْ فيه منذ البداية.

وتظل هذه النفوس تحيا فى ذلك العذاب الراكد خلف جدار الخوف من الصدام مع المجهول، وهكذا تظل عرضة للانفجار فى أية لحظة.

* * *

موقف الإنسان الربانى من الرأى العام

لكل ما سبق فلا تضعفن أمام ما يسمى بالرأى العام.

إن الرأى العام فى مجتمع فاسد هو تحصيل حاصل للفساد العام وموقف الإسلام من هذه القضية شديد الوضوح والحسم.

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنعام: ١١٦).

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٣).

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(المؤمنون: ٧١).

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة: ٤٩).

فلا يوجد شيء فى الإسلام يسمى الرأى العام، ولا يوجد شيء فى الإسلام يعنى الرضوخ للخطأ حتى ولو اجتمع عليه أهل الأرض جميعًا.

إن مجتمعًا تحكمه السطحية والنفعية لا تتوقع من أفراده أن يصدروا آراءهم إلا عن جهل وسطحية، أو عن حقد ونقمة، أو عن نفعية ولامبالاة.

إما عن جهل وسطحية حيث ليس هناك دافع فى تلك الظروف الطاحنة يدفعهم إلى السعى إلى معرفة الحقيقة أو التعمق فى فهم الأمور.

وإما عن حقد ونقمة يدفعها إحساس البعض بالضعف والتخاذل بالنسبة لنفس الأمور التى يقوم بها الآخرون، أو عن نفعية يبتغيها البعض من وراء إصدارهم لآرائهم هذه سواء كان ذلك عن طريق مباشر أو غير مباشر.

أو على أحسن الفروض فإن الكثير من الناس فى هذا المجتمع يصدرون آراءهم على

سبيل: (مَشّى حالك - بلاش دوشة - وأنا مالى - أهو فَضٌ مجالس - أهو الواحد بيمسك العصاية من النص؛ أى: من باب إرضاء جميع الأطراف).

وهؤلاء لا يدرون مدى جناية ما يفعلون.

إن تمييع القضايا والخلط بين الصحيح والخطأ لن يمضى بأى مجتمع إلى أى خطوة إلى الأمام، بل قد يعود به ألف خطوة إلى الوراء.

أما إلباس الحق بالباطل، وإقرار الظلم وإعلاء كلمته، وإهدار الحقوق وطمس معالمها، وموالاة الظالمين ومجافاة المظلومين. كل ذلك يدخل فى دائرة جريمة قول الزور، وما أدراك ما الذى تعنيه جريمة قول الزور فى الإسلام؟!

يقول الحق جل شأنه:

﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج: ٣٠- ٣١).

وعندما ذكر الرسول ﷺ أكبر الكبائر ظل يردد بانفعال شديد: (ألا وقول الزور، ألا وقول الزور)، حتى قال الصحابة: ليته سكت[1].

إن إحقاق الحق وإبطال الباطل هو المهمة الأساسية التى يُناطُ بها الإنسان الربانى فى دائرة العلاقات الاجتماعية، وهو المعيار الأساس للتفرقة بين مجتمع يرقى إلى المُثُلِ الإسلامية ومجتمع يرتع فيه الفساد والضلال وتتنزل عليه لعنات الله[2].

ولذلك فالإسلام يحذرنا بقوة من الركون إلى الظالمين والميل إليهم واتباع موقف أعوانهم من المنافقين الذين يعينونهم على ظلمهم بتمييع القضايا وإلباس الحق بالباطل.

يقول جل شأنه: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (هود: ١١٣).

---

(١) صحيح البخارى ٩٣٩/٢ حديث ٢٥١١، باب [ما قيل فى شهادة الزور]، ٢٣١٤/٥ حديث ٥٩١٨، باب [من اتكا بين يدى أصحابه]، وسنن البيهقى الكبرى ١٢١/١٠ حديث ٢٠١٦٧.

(٢) أعود فأقول إنه عند طغيان الفساد واحتدام الفتن فالخير هو تضييق دائرته الاجتماعية إلى حد الضرورة والاقتداء بقول الرسول ﷺ: "فليسعك بيتك وليتك على خطيئتك". والمسألة اجتهادية فى تقدير واقع كل مجتمع.

ويقول الرسول ﷺ: (من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام)[1].

ويقول أيضًا ﷺ: "والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا ولتقصرنه على الحق قصرًا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم"[2].

إن الباطل لا يصير حقًّا مهما اجتمع عليه الناس ومهما طال به الزمن، وما بُنِيَ على باطل يظل باطلاً مهما كان ارتفاع هذا البناء.

ولا يكتسب الظلم أى مشروعية فى الإسلام حتى لو ارتضاه الناس جميعًا، بل حتى لو ارتضاه المظلوم نفسه.

ولذلك فإن ذلك الرأى العام الذى تقوم له الدنيا مهابة ليس له فى الإسلام من قيمة – إذا لم يتفق مع شرع الله – أكثر من القيمة الجمعية للملايين العديدة من الصفر الحسابى.

هل بعد ذلك من الممكن أن تهتز نفسك أمام ما يسمى بالرأى العام؟!!

* * *

---

(١) المعجم الكبير للطبرانى ٢٢٧/١ حديث ٦٢٣، بلفظ: (من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام)، وكذا فى شعب الإيمان للبيهقى ١٢٢/٦ حديث ٧٦٧٥، بلفظ: (من مشى مع ظالم يقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام).

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ١٤٦/١٠ حديث ١٠٢٩٠، وفى سنن أبى داود ٢١٣/٤ حديث ٤٣٣٨، باب [الأمر والنهى]، ورياض الصالحين ١٥١/١، وكذا فى إتحاف الخيرة المهرة ١٢٩/٧ حديث ٧٠٧٦.

الحرام الأصغر والحرام الأكبر

إذا ساد الجهل بين الناس اختلط الأمر عليهم بين الحلال والحرام بوجه عام، ويكون من الطبيعى أن يفقدوا القدرة على التفرقة بين الحرام الأصغر والحرام الأكبر بشكل أولى.

وباختلاط مثل هذه الأمور يكون المجال فسيحٌ للأفّاقين للّعبِ على وتر الحلال والحرام لتحقيق مصالحهم، وفرض نفوذهم، وكسر شوكة الآخرين، وفرض سيطرتهم عليهم.

فيصير الحلال ما يحلّلونه هم، ويصير الحرام ما يحرّمُونه هم، ويضخمون الصغير، ويصغرون الكبير (يفيّلون النملة ويتمّلون الفيل)، وأعجب العجائب فى هذه الأمور هو أنهم لا يحتاجون فى كل ذلك إلى نصير، وإنما الذى يكون فى أشد الحاجة إلى نصير هو من يريد أن يضع الأمور فى نصابها، فيُحَلِّلُ الحلال ويُحَرِّمُ الحرام، ويضع كل حرام فى الدرجة التى يستحقها من التحريم والعقاب.

ولنا أن نتساءل لماذا يستطيع هؤلاء الأفاقون التلاعب بمثل هذه الأمور جاعلين من أنفسهم أربابًا من دون الله، ومؤيدين عادة من أغلب الناس؟!!

الإجابة: إنها لعبة العرف والتقاليد، فنحن فى الحقيقة (خصوصًا فى مجتمع مثل مجتمعنا المصرى) نستمد معاييرنا فى الحكم على أغلب الأمور من حيث الحلال والحرام من العرف والتقاليد وليس من الدين.

وإذا تعجب البعض مما أقول أو استنكره فإن سبب ذلك يعود إلى الجهل بالدين الذى تفاقم أمره وبلغ مداه وساد بين الناس حتى لم يعودوا فقط يخلطون بين الحلال والحرام، ولا يميزون بين الحرام الأصغر والحرام الأكبر، وإنما إلى الحد الذى لا يدركون معه أنهم يُحَرِّمُونَ ويُحَلِّلُونَ الأشياء تبعًا للعرف والتقاليد، وليس تبعًا للدين، وإذا صرخ أحد فى وجوههم انتبهوا ليس هذا الذى تحكمون به على الأشياء بالحلّ والحُرْمَة دينًا وإنما عرفًا وتقليدًا لم يستطيعوا تصديقه، بل وشكُّوا فى أمره، وأنّى هم أن يصدقوا ذلك وحصيلة ما استقوه من

معلومات صحيحة عن الدين هو أبسط من أن يذكر، وقد اختلط بجهل الخطباء، وتخاريف العوام، ومخاوف وأوهام وعُقَدِ الآباء والأمهات، وأضاليل السياسيين والعلماء المحتالين.

حتى وقر فى نفوسهم أن الحلال هو ما يُقِرُّهُ العرف والتقاليد والمفاهيم السائدة بين الناس أنه حلال، والحرام هو ما يُقِرُّهُ العرف والتقاليد والمفاهيم السائدة بين الناس أنه حرام. وعلام البحث وراء ذلك إذا كان البحث مُرْهِقًا للنفس وضغط الظروف لا يحتمل التعمق فى الأمور؟! وأى جدوى تأتى من وراء هذا التعمق فى مجتمع تحكمه المفاهيم النفعية؟!.

ويكاد يستوى فى مثل هذه الأمور الشخص العادى مع الشخص الجامعى؛ لأن الأمر يتعلق بمدى اهتمام الشخص فى حياته بإدراك ما يجب عليه تعلمه من أمور الدين وليس بما حصل عليه من شهادات وعلوم عامة.

أى أن الأمر يكون هكذا:

الحلال هو ما يجعله العرف والتقاليد حلالاً.

والحرام هو ما يجعله العرف والتقاليد حرامًا.

والحرام الأصغر هو ما يجعله العرف والتقاليد حرامًا أصغر.

والحرام الأكبر هو ما يجعله العرف والتقاليد حرامًا أكبر.

ويأتى الأفَّاقون والمحتالون ويستغلون مثل هذه الأوضاع لمصالحهم الخاصة، ولكسر شوكة الدعاة والمصلحين واتهامهم فى دينهم وعقولهم، مؤيدين فى ذلك بقطعان من البشر الجهلاء الذين يساقون كالبعير إلى حيث يريد الدهماء.

وأود أن أُرَكِّزَ الآن على موضوع الحرام الأصغر والحرام الأكبر فأقول: إن المجتمع قد ينهض لمحاربة حرام أصغر، بينما يغض الطرف عن استفحاش حرام أكبر، ويكون السبب الرئيس فى ذلك هو أن الأعراف والتقاليد تعتبر هذا الحرام الأصغر حرامًا أكبر، وتعتبر هذا الحرام الأكبر أمرًا هينًا لا يستدعى الوقوف عنده كثيرًا.

خذ مثلاً هذا المثال الشائع جدًّا بيننا: فتى من الفتيان لا يصلى فإنه من النادر جدًّا فى مجتمعنا أن يثير ذلك غضب أسرته عليه، ولكن هذا الفتى ذاته تنقلب الدنيا عليه (فى أغلب الأُسَرِ) إذا صار يدخن؟!

سبحان الله.. صحيح أن التدخين أمر مستهجن دينيًا لكن هل من الممكن مقارنة ذلك بإثم ترك الصلاة الذى هو أكبر إثم فى الوجود بعد الشرك بالله.

ولكن هذا لا يهم ما دام موقف المجتمع بالنسبة لفتى من الفتيان يعتبر تركه للصلاة هو الإثم الأصغر وتدخينه هو الإثم الأكبر.

وكذلك فإن المجتمع لا يعبأ بأن تذهب امرأة لزيارة الأضرحة وتمارس فيها أمورًا ما أنزل الله بها من سلطان وتتناقض مع العقيدة الإسلامية تناقضًا تامًّا، أو تذهب إلى أحد العرافين وتأخذ كل ما يقوله مأخذ الجد، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ فيما معناه: "من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدق بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)[1]، أما إذا أهملت هذا المرأة إهمالاً ملحوظًا فى شأن من شئون الطعام فإنها تثير بذلك نقمة الجميع عليها.

ومن الطبيعى أننى لست من المنكرين لمدى تأثير الشئون المنزلية على إشاعة السكينة وتحقيق الاستقرار فى الأسر، ولكن ماذا من الممكن أن يكون إثم ذلك بالنسبة لوقوع المرأة فى تلك الأعمال الجاهلية التى تعد من الشرك.

وإذا قام شخص ما بفتنة عظيمة لإيقاع أحد الأشخاص فى المصائب فإن المجتمع لا يقف كثيرًا عند ذلك الأمر نظرًا لشيوع حدوثه فى تلك العصور الفاسدة، حتى لم تَعُدْ هذه الأمور تقابل بذلك الاستهجان الشديد الذى كانت تقابل به فى الماضى، أما لو غضب ذلك الشخص الذى تُكَادُ له المكائد ورفض أن يلقى السلام على ذلك الشخص الذى كاد له المكائد حتى يعترف بجرمه قوبل موقفه هذا بالاستياء العام لمخالفته الصريحة لحديث الرسول ﷺ: "لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال.. حتى قوله وخيرهما من يبدأ بالسلام"[2].

ويبدو هذا المنطق العجيب – الذى لا يستند إلى شىء سوى أنه قد صار عرفًا شائعًا – أن إيقاع الناس فى المصائب على الرغم من كونه جريمة دينية كبرى إلا أنه ليس أشد من ترك السلام عندما يحكم الناس ذلك التفكير الأخرق.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقى ١٣٥/٨، ١٣٦، وفى المعجم الأوسط للطبرانى ١٢٢/٢ حديث ١٤٥٣، وفى المعجم الكبير ٧٦/١٠ حديث ١٠٠٠٥، وفى مسند أحمد ٣٣١/١٥ حديث ٩٥٣٦.

(٢) صحيح البخارى ٢٢٥٦/٥ حديث ٥٧٢٧، باب [الهجرة]، ٢٣٠٢/٥ حديث ٥٨٨٣، باب [السلام للمعرفة وغير المعرفة]، بلفظ: (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام)، وفى صحيح مسلم ٩/٨ حديث ٦٦٩٧.

وإذا لم يطلق أحد الدعاة إلى الله لحيته قالوا: انظروا.. إنه يدَّعى القيام بالدعوة إلى الله مع أنه حليق اللحية، ويرتدى ثيابًا إفرنجية، أما لو كان بين هؤلاء أنفسهم من يترك الصلاة أو يرتكب الفواحش مثل: الزنا، وقول الزور، فإنه غالبًا لا يوجه إليه لوم.

ويروى فى هذا الاتجاه أن أحد العراقيين سأل واحدًا من كبار أئمة المسلمين عن حكم دم البراغيث هل هو طاهر أم نجس؟ فقال له:

أتستحلون دم الحسين وتسألنى عن دم البراغيث!!

ما الذى أريد أن أقوله من ذلك؟

أريد أن أقول للمسلم الواعى: انتبه إننا لسنا بعصمة من الخطأ، فلا تعطِ الفرصة لمن تحكمهم تلك المفاهيم الاجتماعية أن يضيقوا الخناق عليك لخطأ فعلته؛ ليصرفوا انتباهك عن جرائم أخرى يفعلونها هم يهون أمامها خطؤك، حتى تظل أنت محاصرًا بالضغط الخانق لتلك المفاهيم المشاعة التى يصعب عليك الفكاك منها، فتظل مشغولاً بها عن مواجهة جرائمهم.

إن المجتمعات الفاسدة تعيش فى متاهات من الإضلال، وعلى من تُناطُ به مهمة الإصلاح الاجتماعى أن يحرص جيدًا على ألا تَزِلَّ قدمه فى شَرَكٍ ينصبه له الأفَّاقون لكى يعطلوه عن مهمته.

* * *

حقيقة ما يسمى برأى الناس

هناك غول مرعب يسمى رأى الناس يَحْسِبُ له الكثيرون ألف حساب ويضحون خوفًا من إغضابه.

ولكن هل هناك واقع حقيقى يسمى رأى الناس، أم أن هذا الغول الاجتماعى هو مجرد واقع وهمى مزيف مثله فى ذلك مثل الغول الأسطورى.

إذا أردنا أن نفهم ذلك فلا بد أن نحلل واقع التجمعات الاجتماعية التى يتكـون منـها المجتمع، والتى ينسب إلى مجموعها فى النهاية ما يسمى برأى الناس.

واجتماع الناس عادةً سواء كان فى المجتمعات الريفية أو الشعبية أو المدنية غالبًا ما يتخذ شكل المصاطب.. المقاهى.. النوادى على الترتيب السابق، فى تجمعات شبه ثابتة يتـراوح عددها ما بين خمسة وعشرة أشخاص[1].

وفى الحقيقة فإنه غالبًا ما يكون هناك حد أدنى من الاتفاق فى المفاهيم والقيم بين أفـراد هذا التجمع، ومع ذلك فغالبًا ما يختلفون على أى شىء من الموضوعات المطروحة بينهم - وهذا أمر طبيعى يتعلق بالطبيعة البشرية نفسها، ولكن مصيبة المصائب تأتى إذا ما اتفقـوا على رأى ما فى قضية معينة.

إن هذا يوهم الكثيرين - وهذا أمر قلّمَا ينتبه إليه الناس - بأن ذلك الرأى الذى اتفقوا عليه يمثل رأى الناس جميعًا؛ لأن محدودية الوعى رسَّبت فى نفوسهم أن تجمعهـم - يعـنى الناس، أو فى أفضل الأحوال فإن تجمعهم - يمثل صورة مصغرة للتيـارات المختلفـة لآراء الناس، وبذلك يكون اتفاقهم على رأى ما فى تجمعهم هو ما يمثل حتمًا ما يتفق عليه الناس من رأى.

والواقع أن هذه التجمعات غالبًا ما تختلف فيما بينها حول ذلك الحد الأدنى من المفاهيم

---

(١) من الواضح هنا أنى لا أتحدث هنا عن الرأى العام السياسى.

الذى يكاد أن يكون متفقًا عليه داخل كل مجموعة على حدة، وبذلك فهى عادة ما تمثل مجموعة من الأنماط الفكرية التى تمضى فى خطوط شبه متوازية، أى أن الحد الأدنى من المفاهيم الذى يتفق عليه أفراد تجمع ما قد لا يتفق عليه أى تجمع آخر.

ومن الطبيعى أن يكون حديثنا مرتبطًا بخصوصية المجتمع الذى نعيش فيه فى ظل هذه المرحلة التاريخية التى لا يكاد ينتظم أبناءها أى سياج فكرى فى أى أمر من الأمور، ويُستثنى دائمًا من حديثنا التيار الدينى الملتزم والذى سنشير إليه بعد قليل.

وعلى ذلك فكل تجمع لا يكون صورة مصغرة للتيارات المختلفة لأفكار الناس، وإنما كل تجمع له خصوصيته الخاصة، فإذا اتفق أفراده على أمر ما فإن ذلك لا يعنى بأى حال من الأحوال تمثيلهم لرأى الناس، بالرغم من أن أفراده غالبًا ما يوهمون بذلك ويزعمونه، ولكن الحقيقة أن الرأى الذى يتفقون عليه فى أمر ما غالبًا ما يذهب أفراد تجمع آخر إلى رأى يخالفه، ويعتقدون هم الآخرون أن ذلك الرأى هو رأى الناس، وقد يتفق أفراد تجمع ثالث على رأى يخالف رأى التجمعين السابقين فى نفس الموضوع، ويزعمون بدورهم أن ما اتفقوا عليه يمثل رأى الناس.. وهكذا فإنك ترى ما يسمى برأى الناس هو غالبًا مجرد وهم ناشئ عن ارتباط شخص ما بتجمع معين من البشر يجعله يعتقد أن اتفاقهم على شىء ما، ما هو إلا تمثيل لرأى الناس فى هذا الشىء.

وأغلب الأمور الاجتماعية التى تثير جدلاً حول مدى مخالفتها للعرف غالبًا ما تتخذ هذا الشكل، وهذا لا يعنى أنه ليس هناك من الأمور ما يؤدى إلى اتفاق شبه تامٍّ بين الناس عليها، أى: بين كل هذا التجمعات أو أغلبها، وإن تكن مثل هذه الأمور محدودة للغاية.

أما لو نظرنا لهذا الأمر بالنسبة للتجمعات النسائية.. فإن النساء غالبًا ما لا يتفقن على أى أمر من الأمور، والطبيعى أن مدخل المرأة فى تناولها لأمر ما هو من باب الحس والشعور، وليس من باب المنطق والعقل، ولذلك فكل امرأة تعطى رأيها فى أى أمر بحسب الجانب الذى تتأثر به، أو يتم التأثير عليها من خلاله، بل إن كل امرأة على حدة قد تُصْدِرُ فى الموضوع الواحد عدة آراء مختلفة بحسب الجانب الشعورى الذى تتأثر به فى كل مرة تتناول فيها الموضوع.

وعلى هذا فإن ما يسمى برأى الناس هو غالبًا مجرد وهم لا يثير الرعب إلا فى قلب المغفلين، ولا يؤدى إلى إحجام النفس الإنسانية وعدولها عن أمر تريده إلا عند المغفلين.

والخائبون فقط هم الذين يرتضون أن يعيشوا حياتهم فى الجحيم خوفًا من مواجهة ذلك الوهم الكبير الذى يسمى (رأى الناس).

بل إن الذى يحدث فى الواقع أن رأى الناس هذا كثيرًا ما يستغل ككارت إرهاب فى يد الدهماء، يستخدمونه عندما تقتضى المصلحة ذلك كوسيلة للضغط على هؤلاء المغفلين لردعهم عما يكون قد أثير فى نفوسهم من سخط على واقع مهين يقتضى التغيير الذى يعانون منه ويستفيد منه هؤلاء الدهماء.

لنفرض أن رجلاً ما أراد أن يتزوج من فتاة أصغر منه فى السن بفارق كبير ها هى الدنيا قد تنقلب عليه لاتخاذه هذا القرار ولو تهيأت نفس الفرصة لأحد هؤلاء الذين أقاموا الدنيا عليه لما تردد لحظة واحدة فى اتخاذ نفس القرار الذى هاجمه بشدة من قبل.

لنفرض أن إحدى النساء أقامت الدنيا و لم تقعدها على ابنها الذى أراد أن يتزوج من أرملة أو مطلقة.. دعها هى ذاتها تتعرض إحدى بناتها للطلاق أو للترمل ستقيم الدنيا ولا تقعدها على هؤلاء اللاتى يُحَرِّمْنَ ما أَحَلَّ الله ويقفن فى وجه من يريد الزواج من مطلقة أو أرملة.

* * *

مَنْ يَحْكُم عَلَى مَنْ؟
والموقف من الحُقّادِ

مَنْ يَحْكُم على مَنْ؟

هذا سؤال فى غاية الأهمية.

هل يترك الأمر هكذا مفتوحًا على مصراعيه - كما يحدث فى الواقـع فعـلاً - لأى شخص أن يحكم على أى شخص.

وهل من الممكن أن يمثل ذلك قلقًا لكبار النفوس؟

إن هناك أصنافًا من البشر ليست إلا كتلاً من الحقد الأسود تمشى على قدمين لا يعملـون إلا على التماس زَلاّتِ الناس بل وهفواهم وتضخيمها والغض من محاسنهم وتحقيرها.

إن النقمة تملأ قلوبهم على كل شيء؛ ولذلك فهم يبادرون الناس باقامهم بما تمتلئ بـه نفوسهم من أمراض.

وفى الحالة الحضارية المتسمة بسيادة الجهل التى نعانى منها الآن وجـد أمثـال هـؤلاء الفرصة فى تشويه أهل العلم والحَطّ من أقدارهم.

فنجد سفيهًا جاهلاً لا يحسن من أمر الدين أو الدنيا شيئًا يتبارى فى الحكم على علـم العلماء والحَطّ من دينهم ودنياهم.

إن من أصعب الأشياء على النفس أن يجرى حُكْمُ جاهل على عالم.

أو يجرى حُكْمُ ضَالٌ على صالح.

فما بالك بحكم الجاهل الضال على العالم الصالح!!.

إن الله ﷻ يقول فى كتابه العزيز: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩).

لا.. لا يستوون.

ولا يحق لأحد أن يحكم على علم العلماء إلا العلماء.

ويقول ﷻ: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

(القلم: ٣٥- ٣٦).

لا.. شتان بين المسلمين والمجرمين.

ولا يحق لأحد أن يحكم على الصالحين إلا الصالحون.

ليست القضية عبثًا وليست المسألة سفاهة، وكبار النفوس يجب أن يمضوا فى طريقهم غير عابئين بهذا العبث أو هذه السفاهة.

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا سَلَٰمًا ﴾ (الفرقان: ٦٣).

لكن المسألة قد تتمادى فى ظل ظروف مواتية لها إلى التشنيع أو الفتنة أو الإيقاع فى المصائب.

وقد يتخذ الحاقدون لذلك العديد من الأساليب المختلفة.

إن لى الحقائق أو إلباسها بالباطل أو تمييعها تمامًا حتى لا تكاد تَبينُ، ودس السم فى العسل أو النيل من الآخرين من خلال الثناء عليهم، كل ذلك من الأسلحة الأولية بالنسبة للحُقّاد.

والمهم فى الأمر أنه إذا تمادى إلى تلك الأمور المُشَارِ إليها وصار يمثل عائقًا كبيرًا عن التقدم فإنه لا مَفَرَّ من تحطيمه.

ولكن لا بد أن يعى الإنسان أنه يحتاج لدرجة من الفطنة والكِيَاسَةِ لا تقل عن درجة القوة التى يحتاجها لمواجهة مثل هذه الأمور.

* * *

الدائرة الإسلامية

هل يعنى ذلك أن الإنسان الربانى يتحلل من أى قيد اجتماعى؟

لا.. وإنما هو فقط متحرر من كل القيود الاجتماعية التى لم ينـــزل بها سلطان مـــن الله، هو فقط مقيد بحدود القواعد الشرعية التى تختص بتحديد الحلال والحرام، والصحيح والخطأ، والعيب واللاعيب، ولا ينتصح المسلم إلا بمن يَعُونَ هذه الحدود ويعملون بها من المسلمين.

أى أن المسألة مسألة دوائر:

دائرة من القطيع الاجتماعى الذى يسير أينما مضى به سائقوه.. وهؤلاء لا عِبْرَةَ علـــى الإطلاق بما يقولونه أو يذهبون إليه من آراء.

ودائرة خاصة من الملتزمين يجب أن يعمل الإنسان الربانى لنصائحها وآرائها ومواقفهـــا ألف حساب.

* * *

كيف تفكر المرأة عندنا

إنسانية المرأة

مدخل:

المرأة ليست طبقًا من اللحم الشهى تأكله فتشعر بالشبع والنشوة.

المرأة ليست طبقًا يُشتَهَى، تتفاوت الرغبة إليها بقدر جمالها كما تتفاوت الرغبة بحسب نوعه وجودته.

المرأة مخلوق إنسانى قبل أى شيء آخر، وتعلق المرأة وانشغالها بكل ما هو إنسانى أكبر من تعلق الرجل.

فما ينوء به كاهل الرجل من مسئوليات وهموم يجعل من الصعب عليه بمكان أن ينشغل بالأمور الإنسانية بنفس القدر الذى من الممكن أن تنشغل به المرأة التى يتمحور اهتمامها على مثل هذه الأمور.

ولذلك يلاحظ عادةً تفوق المرأة على الرجل فى المجالات الاجتماعية والعاطفية وانتصارها الحاسم عليه فى أى صراع يدور بينهما فى تلك المجالات.

وكيان المرأة الحقيقى فى تلك الروح التى تحتويها والتى تنعكس على كل حركة من حركاتها وكل سكنة من سكناتها، وجمال المرأة الحقيقى هو فيما تحمله تلك الروح من جمال داخلى.

وقد يحبوها الله مع ذلك جمالاً خارجيًّا فيكون بمثابة مرآة ساطعة الضوء تعكس بشدة الجمال الداخلى ببريق مبهر يصعب مقاومته.

وقد لا يمنحها الله إلا جمالاً متواضعًا ومن ثم لا يدرك أحد مدى جمالها الداخلى إلا بالاقتراب منها.

إن المرأة الجميلة الروح المتألقة الصورة هى حقًّا قوة قاهرة.

ولكن هناك من يتعاملون مع المرأة على أنها طبق من اللحم الشهى، وبذلك يفضلون امرأة على امرأة أخرى بحسب جمالها فقط، كما يفضلون طبقًا من اللحم عن طبق آخر بحسب نوع اللحم وجودته.

بل قد يستبدلون الذى أدنى بالذى هو خير من باب التغيير وطرح الملل، وبتلك الوضاعة قد يتركون الجميلة ولو كانت حلالاً ويلهثون وراء الخبائث من النساء.

ولا عجب فما دامت المسألة مسألة أطعمة شهية فقط فمهما كان الطعام شهيًّا وجذابًا فإن النفس إذا اعتادته فإنها تَمَلُّهُ وتعافه وتبحث عما هو أدنى منه.

ولذلك فإن المرأة الواعية الحكيمة هى التى ترتقى بنفسها عن أن تكون مجرد نوع من أنواع الطعام.

وهنا يتضح لدى من خَبِرَ بِتَجَارِبِ الحياة وعمل فيها فكره التطابق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الواقعية.

إن ارتقاء النفس أمر دينى لا شك فيه، ولكن حتى من المنظور الدنيوى البحت فإن المرأة التى تبغى الاحتفاظ بقوتها والاستبقاء على جاذبيتها وإشعاع بريقها فلا بد أن تكتنز بقدر استطاعتها هذا الجمال الداخلى ولا تفرط فى شىء منه؛ لأنه المَعِينُ الذى تستطيع أن ترتكز حتى آخر لحظة من عمرها على القوة المستمدة منه.

والدنيويون من الرجال الوضعاء لا يجتذبهم كثيرًا هذا الجمال الداخلى ولكنهم قد تردعهم قوته ويتضاءلون أمام عظمته ولذلك كثيرًا ما يتجنبونه.

أما جمالها الخارجى فمهما بلغ الغاية فى مداه فإنهم إذا نالوا منه واعتادوا ذلك هان عليهم ومالوا إلى غيره ينشدون فيه بغيتهم التى لا تقف عند نوع واحد من الجمال مهما بلغت مكانته.

ولذلك فالمرأة الحكيمة حتى من الناحية الدنيوية البحتة يجب أن تنأى بنفسها وتترفع عن التعامل مع هؤلاء الدنيويين الوضعاء.

ويوفر علينا الإسلام التماس كل هذه العِبَرِ من تَجَارِب ندفع ثمنها الباهظ من أعمارنا وتثقلنا آلامها لسنوات طويلة، هذا لو سِرْنَا على هداه المستقيم وعملنا بأحكامه والتزمنا أوامره ونواهيه وتعاليمه.

فالإسلام هو الذى جعل قيمة المرأة فى إيمانها بالله وما ينطوى عليه ذلك الإيمان من الرفعة والسمو والنقاء والطهارة والاعتزاز والترفع بالنفس عن كل وضيع من الأمور، وبهذا الإيمان وما يقتضيه من التزام بأوامر الله وتعاليمه يَهَبُ الإسلام المرأة وجودها الحقيقى ويحفظه من أى عبث.

* * *

الاستسلام للأحزان يعنى الاستسلام للدمار

ما أراه هو أن فى كل نفس فينا جانب يميل إلى الحزن! فالحزن جزء لا يتجزأ من كينونة الإنسان، وهو أحد المنافذ التى يخترق بها الإنسان غيوم النفس إلى البصيرة، فوجود الحزن يرتبط ارتباطًا وثيقًا بتوازن الإنسان نفسه ووعيه واتساقه الداخلى.

لكن البعض قد يتمادى به الأمر فى الاتكاء على الحزن إلى درجة مغالى فيها ويستمرئ ذلك وقد يكون فى ذلك تدميره.

فالاختلال بالتوازن النفسى للإنسان بالاتكاء على الحزن يجعل منه منفذًا إلى الوهم لا إلى البصيرة، بل وكثيرًا ما يصنع الحزن ذاته تلك الغيوم التى تحجب بصيرة الإنسان، ويضع أمام تطلعات النفس عوائق وعوائر ومصاعب لا وجود لها، بل ويكبل هذه التطلعات ذاتها بالعجز والإحباط.

والخلاصة فإن التمادى فى الحزن والمبالغة فيه يصيب النفس فى النهاية بالشلل والعجز عن التطلع إلى أى رغبة من الرغبات الحيوية فى الحياة ويسقطها فى مستنقع اليأس والفتور.

يقول تعالى:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣).

﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (الحجر: ٥٦).

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح: ٥- ٦).

فإذا كنت ممن ابتلاهم الدهر فيما مضى من أعمارهم بمكابدة الآلام والارتحال فى المحن فلا تَنْظُرَنَ إلى الوراء أبدًا، ولا تَحتَفِظَنَّ فى نفسك بشىء يتعلق به إلا العظات والعِبَر المُستَمَدَّة منه.

إن من يحمل ذاكرة أثقل من نيران الأرض يوشك أن يتداعى جسده من الإعيـــاء إذا لم تستند نفسه على ركائز القوة الإيمانية.

والذى ينظر إلى الوراء فى ماضيه المؤلم فكأنه يفتح على نفسه أبواب الجحيم ليعيش فيها.

فكيف نحرق أعمارنا بأنفسنا وقد فتحت لنا أبواب المستقبل!!!.

وكيف نبدد طاقاتنا فى الهموم ولا نستغلها فى محاولة صنع ما نريد به أن نكون!!!.

إن القَدَرَ لا يعادى أحدًا بالذات، فهذه فكرة ساذجة جاهلية لا بد أن نتخلص منـــها.. فكرة تتناقض تناقضًا بَيِّنًا مع المفهوم الإسلامى للعلاقة بين الإنسان وَالْقَدَرِ.

وإذا كنا قد استطعنا بفضل الله علينا أن نتخلص من ذلك الماضى وننتصر عليه فلمـــاذا نأسر أنفسنا فى نار هزائمه ولا نطلقها فى جنة انتصاراته.

إن الهزيمة لا تعنى الانكسار والاستسلام والانهيار، وإنما ضرورة إدراك العوامل التى أدت إليها والتخلص منها.

والانتصار لا يجب أن تلهينا نشوته عن إدراك العوامل التى أدت إليه والتمسك بها.

والعوامل الحاسمة التى تدور حولها الهزائم والانتصارات فى أى صـــراع هـــى الإيمـــان والإرادة والوعى، ومن يفتقد هذه الأشياء الثلاثة فإنه يفتقد الركائز الثلاثة فى أى صـــراع فلا يَنْتَظِرَنْ إلا الهزيمة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ (يونس: ٨١– ٨٢).

ومن هُزِمَ بالفعل فعليه أن يستعيد هذه الركائز ليستند إليها، وبدلاً من أن يحيا فى مرارة الماضى عليه أن ينطلق بها نحو الانتصار.

إن علينا أن نستوعب سُنَنَ الله فى الأرض ونسير على هديها ونلتجئ إلى الله وندعوه أن يوفقنا ويسدد خطانا؛ لأن قَدَرَ الله فوق كل شىء وإرادته هى النافـــذة و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (التوبة: ١٢٠).

إن اختزان الأحزان لا يفترق كثيرًا عن اختزان الدمار.

وللحزن فى امتلاك نفوس نساء المسلمين شأن عجيب.

أعرف زهورًا من النساء يتركن أعمارهن تتسربل فى الهموم والأحزان اتقــاءً لانتقــاد اجتماعى باطل أو إحرازًا لمجد اجتماعى مزعوم أو استسلامًا للشعور بالانكسار والقنــوط واليأس.

والعقيدة الإسلامية تعلمنا خصوصًا فيما يتعلق بالاعتقاد بالقضاء والقَدَرِ وكذلك الاعتقــاد باليوم الآخر أنه مهما طالت السنون القاتمة السواد فلا بد أن فجرًا ما سيأتى بإذن الله.

والتى تؤمن بهذه العقيدة لا يحق لها أن يَتَمَلَّكَهَا الحزن لخَطْبٍ أصابها أو لداهية أَلَمَّتْ بها.

* * *

التشاؤم شرك
والتفاؤل حقيقة إسلامية

يقول الرسول ﷺ: "الطِّيَرةُ شِرْكٌ"[1]، أى: أن التشاؤم شرك بالله، ولقد تضافرت الأحاديث على أن التشاؤم من أىِّ أمر من الأمور شرك بالله. وخطورة هذا الأمر أنه يشيع بين النساء بشكل عجيب (العين التى تَرِفُّ، والقطة السوداء، والغراب الذى ينعق، والمقص الذى يطقطق، وأغرب هذه الأشياء على الإطلاق هو الاعتقاد بأن يوم الجمعة فيها ساعة نحس؛ وذلك يناقض ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه فى يوم الجمعة ساعة يستجيب الله فيها الدعاء[2]، أى: أنها ساعة فرج وليست نحسًا كما يتوهم الناس).

ومن ناحية أخرى فإن التفاؤل حقيقة من الحقائق الإسلامية؛ لأن (الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً)، وكذلك ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾، إن الله ينصر من ينصره، و﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾؛ لأن الجنة هى النهاية السعيدة التى جعلها الله للمؤمنين.

* * *

(١) سنن ابن ماجة ٢/١١٧٠ حديث ٣٥٣٨، ومسند أحمد بن حنبل ١/٤٤٠ حديث ٤١٩٤، وفى سنن أبى داود ٤/٢٤ حديث ٣٩١٢.

(٢) صحيح البخارى ٥/٢٣٥٠ حديث ٦٠٣٧، بلفظ: (فى يوم الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله خيرًا إلا أعطاه)، كما جاء فى مسند أحمد بن حنبل ٢/٢٧٢ حديث ٧٦٧٤، بلفظ: (إن فى الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله ﷻ فيها إلا أعطاه إياه وهى بعد العصر)، وأيضًا فى صحيح مسلم ٣/٥ حديث ٢٠٠٦، ٢٠١٠، ٣/٦ حديث ٢٠١٢، بلفظ: (هى ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضَى الصلاة).

المرأة هى السجان الحقيقى للمرأة فى مجتمعنا

لا حقيقى لدى المرأة عندنا إلا ما هو شائع.

وليس هناك معيار آخر يُحتَكَمُ إليه لدى أغلب النساء عندنا فى تقديرهن للأمور غير هذا المعيار.

فالمفاهيم الدينية عندهن هى المفاهيم الشائعة المتوارثة عن الإسلام، وهى فى أغلبها مفاهيم جاهلية تسودها الخرافات والأساطير والمعتقدات الشِّرْكِيَّةُ وتعكس فى داخلها ما تنطوى عليه من آثار سلبية، وليس هناك ما يسمى بالتفكير المنطقى العميق لدى النساء عندنا، إنما هناك فقط ما هو شائع.

وعلى ذلك فالمنطقى لديهن فقط هو ما يتفق مع هذا الشائع.

وليس هناك علم ولا ثقافة.

فالعلم والثقافة هما ما ترثنه وتتلقفنه من مفاهيم من النساء الأخريات، لاسيما العجائز أو الكبريات سنًّا اللاتى ترتبط بهن، حتى إذا أرادت أن تتلقى مفاهيم أخرى عن طريق العلم والثقافة فهى لا تتقبل منها إلا المفاهيم التى تتفق مع المفاهيم التى أخذتها من هؤلاء النساء، فما يتفق مع هذه المفاهيم يصير علمًا وما لا يتفق يصير جهلاً أو عبثًا لا جدوى من ورائه ولقد خُبِرْتُ بالعدد الكبير من النساء الجامعيات الذى قد يبلغ المئات والذى يكفى لقياس الأغلب الأعم من نساء المجتمع على ما يذهب إليه هؤلاء من تعلم فوجدت أن الأغلب الأعم من هؤلاء يستمدن مفاهيمهن ومعاييرهن القيمية من النساء العجائز الجاهلات من ذوى العلاقات بهن وكأن مسيرتهن التعليمية لم يكن لها سوى هدف واحد هو التشرف بورقة المؤهل فى النهاية لا أكثر من ذلك.

وبمعيار الشيوع هذا فهن يفكرن فى كل أمور الحياة تستوى فى ذلك المرأة الجامعية والمرأة العادية.

وفى الحقيقة فإن العائق الأكبر فى وجه تقدم المرأة فى مجتمعنا هو المرأة ذاتها.

وهى ذاتها أيضًا السَّجَّانُ الحقيقى الذى يكبلها بمواريث عجيبة من الأغلال والقيود ما أنزل الله بها من سلطان.

ومن الطبيعى أن النساء اللاتى أقصدهن هنا هن النساء المحافظات اللاتى يُشَكِّلْنَ أغلب مجتمعنا، أما الفاجرات من النساء والمتحررات الملحدات منهن اللاتى لا يحكمهن شىء فإنهن يخرجن عن الدائرة التى يتوجه إليها كلامى أصلاً.

ولا عجب إذا قلنا إن المشكِّل الحقيقى لعقل أغلب هؤلاء النساء المحافظات والمرجع الأساس لجُلِّ تصرفاتهن هو الخرافات والأساطير والعُقَدُ الجاهلية المترسبة فى عقول النساء العجائز أو بوجه خاص سيدات المجتمع المحافظات اللاتى يُطْلَقُ عليهن عندنا لفظ (القَرَشَانَات).

ومن تَجَرَّعَ الغيظ من تقاليد المجتمع عندنا وعاداته اللا إسلامية يستطيع أن يستقرئ تلك المفاهيم الجاهلية التى تسيطر على هؤلاء النساء.

فَهُنَّ لا يَمِلْنَ إلا إلى الثبات.. الثبات.. الثبات... والاستقرار.. الاستقرار.. الاستقرار.

والوجل الشديد من أى محاولة لتغيير الأمر الواقع والرضا والتسليم بكل شىء أى شىء.

كما يميل أغلبهن إلى الالتجاء إلى الخرافات يستمدن منها العون على تحمل قسوة الحياة التى تسببن هن أنفسهن فى وجودها.

ومن هنا كانت غلبة المعتقدات والأعمال الشِّرْكِيَّة على الكثيرات منهن والتى تتمثل فى الالتجاء إلى الأضرحة والمقامات يَلْتَمِسْنَ منها العونَ والمساندة والبركة.

ومصيبة المصائب فى التجاء بعضهن إلى أعمال السحر والشعوذة والمعارك المتبادلة بين هؤلاء فى أذى بعضهن بتلك الأعمال أو التخلص منها (فَكِّهَا)، وما يلزم ذلك من الاستعانة بشياطين الإنس والجن، وهى أمور فى الحقيقة لها وجودها الكبير فى مجتمعنا وتدخل كلها فى أعمال الكُفْرِ.

والغاية التى يبحث عنها هؤلاء هى الأمان.. الأمان.. الأمان.

والشائع الآن أن الأمان يتحدد فى النوم فوق سرير من الثروة.

وحقيقة الحقائق فى هذا الأمر أنه لا أمان إلا فى الإيمان والرضا.

فالإيمان هو القوة، والرضا هو القدرة على مواجهة شتى ظروف الحياة وتقلباتها، ولكن أنّى لنا أن نجد من يفهم ذلك.

ولأن هؤلاء النساء يحملن ميراث القهر العبودى المترسخ فى تقاليدنا فإنهن يفزعن من أى محاولة لتغيير كل ما هو قائم بالفعل، مهما حمل من الحماقة والظلم، ولذلك فإن المسئول الأساس عن تكيُّفِ المرأة عندنا وتقديمها للذبح على يد بعض المتسلطين التافهين من الرجال هو المرأة نفسها.

والتبرير المتوارث لدى هؤلاء لتلك الحالة السلبية أمام أى ظلم والتى يسببها ذلك الفزع المترسب لديهن من أى صدام مع المجهول أن ما يحدث هو إرادة الله، أو هو كما يقال فى التعبير الشائع لديهن (النصيب).

نحن البشر وخصوصًا النساء منا عبارة عن كائنات لا إرادة لها تسوقها الأقدار حيث تشاء.

ومن هذا المنطق يُكَرِّسْنَ الرضوخ والانصياع لما يحدث فى هذا العالم فى كل شىء، فيُزَجُّ بالفتيات فى الزِّيجَاتِ اللامتكافئة باسم النصيب، وتحيا المرأة فى حالة من العبودية وتحيا عمرها فى لهاث متواصل من أجل العمل على ترميم التصدعات المتفاقمة فى البيوت التى تقام على حافة الانهيار بشكل دائم باسم (النصيب)، ويظل هذا اللهاث الممزق لنفس هؤلاء باسم (النصيب).

ولن يرث أبناء التمزق إلا التمزق، ولن يرث أبناء الانكسار والرضوخ لكل واقع مرير إلا الانكسار والرضوخ إلا فى القليل النادر.

وكيف من الممكن أن ينجب هؤلاء أجيالاً يملؤها العزم والتحدى والصمود على مواجهة قوى الاستكبار العالمية والجبروت الأمريكى والصهيونى؟!

والحقيقة أن هؤلاء النساء لا يكتفين بما رسخته حياتهن الاستعبادية الممزقة التى صنعها المجتمع الظالم فى ذهن أبنائهن، وإنما هن يقمن بشكل مباشر بتلقين أبنائهن وحشو نفوسهن بالخوف والجبن والهلع من الصدام مع المجهول، كل ذلك على أساس أن الرضا بالأمر الواقع هو (النصيب) وقضاء الله وقدره.

ما لَكُنَّ أنتن والعالم!!.. عليكن أن ترضين بما قسمه الله لَكُنَّ، وما تَقْذِفَهُ لَكُنَّ الدنيا، وما يتفضل به عليكن الظلمة والطغاة وأصحاب الشأن، هذا هو نصيبكن الذى قسمه الله

لَكِنْ، وهل يحق لأحد أن يعترض على قسمة الله له؟!!.

مفاهيم الجهل والاستعباد والتمزق هذه هى المسئولة عن حالة التشوه العقلى والنفسى التى يعانى منها الكثير من أبناء هذه الأمة.. وكيف يستطيع جيل يحمل مثل هذه المفاهيم أن يواجه قوى الاستكبار العالمى التى لا تعتمد إلا على المنطق العقلى والقواعد العلمية فى تقديرها للأمور؟!!.

هم امتلكوا المنطق العقلى والعلم ونحن استعضنا عن المنطق والعلم والوعى الدينى بالجهل والانكسار والخرافة، ولا تستطيع أن تعرف إلى متى يعتقد النساء عندنا أن الظلم هو نصيبهن من هذا العالم!!!.

إلى متى يعتقدن أن الأقدار تعاديهن بالذات دون سائر البشر؟!!.

إلى متى لا يفهمن أنه كما أن ما وقع من أحداث هو نصيب، وما سيقع منها هو نصيب، فإنّ مقاومة كل أمر واقع ومحاولة تغييره هو نصيب أيضًا!! أما ذلك النصيب المطلق النهائى الذى يعتبرنه إرادة الله التى يجب التسليم لها فهى النتيجة النهائية من كل هذه الأمور.

وأقول - لمن يستطعن استيعاب مثل هذا الكلام -: إنه ما دام ليس هناك من يطلع على الغيب ليعلم ما الذى أراده الله لنا فى المستقبل فليس هناك شيء يمكن اعتباره فى علمنا نحن النصيب الحتمى والمطلق والنهائى، فكل شيء قابل للتغيير فى هذا العالم، وتلك سُنَّةُ الله فى خلقه.

حقيقى أنه قد يكون هناك أمور معينة أراد الله نفاذها فى هذا العالم، لكننا لا نستطيع أن ندرك هذه الإرادة لكى يمكننا التسليم بأمر ما دون آخر فلا نعمل على محاولة تغييره.

وقد أردت من كل ما سبق أن أُبيِّنَ ما هى المفاهيم التى تحتل السلطة العليا فى استيعاب ووعى المرأة، ومن ثَمَّ فى القرارات التى تتخذها فى حياتها.

ولذلك فالفتاة أو المرأة عامة عندنا عندما تتخذ قرارًا ما مهما كانت خطورته فى حياتها فإنها عادةً تلتفت يمينًا ويسارًا تستقرئ آراء النساء حولها فى هذا القرار، ومن الصعوبة بمكان أن تجد واحدة منهن تستطيع أن تتحدى تلك التقاليد البالية التى تكبلها بها النساء الأخريات وخصوصًا العجائز منهن.

وهكذا توقف المرأة حياتها رهينة لتلك القيود.

* ما اختاره أبواك هو الصواب أما أنت فصغيرة لا تعلمى من أمر الدنيا شيئًا.

* مهما فعل زوجك ومهما كان سلوكه معك ومع نفسه أو مع أولاده أو مع الآخرين فلا يجوز لك أن تتمردى على ذلك؛ لأن هذا هو نصيبك وقضاء الله وقدره، وهل يستطيع أحد أن يتحدى النصيب والقضاء والقدر؟!!.

* عيشى حياتك كما هى لا تتحدثى عن الحلال والحرام أو عن الصواب والخطأ، ما لنا نحن وتلك الشئون.

* حياتك مطبخك وشئون بيتك، ودينك فى قلبك، وعلمك فى نصائح الأكبر منك، فلماذا تشغلين نفسك بالبحث والقراءة؟!!.

* دينك فى قلبك، فما الدَّاعى لتعلمه من مصدر آخر؟!! وعلمك فيما تتعلمينه من نصائح الأكبر منك، فما الدَّاعى لقراءة الكتب والاهتمام بذلك الشىء الذى يسمى الثقافة؟!! وحياتك هى مطبخك وشئون بيتك، فلماذا تضيعين حياتك بالانشغال بالقضايا العامة التى لا شأن لنا بها؟!! وكيف تجرئين على الحديث عن رغبتك فى المشاركة فيها؟!!.

* مات زوجك فلترتدى أثواب الحداد، ولتحافظى على إقامة مراسم العزاء كل أسبوع وكل موسم وكل عيد، سنة، اثنين، ثلاث سنوات، أو أكثر لا يهم، المهم أن تكسى رضا المجتمع، وأن تثبتى له أصالتك بحفاظك على تلك التقاليد الدَّالَّةِ على صونك ذكرى زوجك.

* أجننت؟!! أتقبلين الزواج من آخر حتى ولو كنت فى ريعان شبابك وأيًّا كان تقوى المتقدم لك وتعهده بتقديم الرعاية اللازمة لصغارك، فماذا سيقول المجتمع عنك عند ذلك؟!!.. اهتمت بشئون نفسها وأهملت صغارها؟!! أجننت؟!! ماذا تريدين أن تفعلى؟!! لا بد أن تعكفى طوال حياتك على تربية صغارك، ولِيَذْبُلَنَّ شبابك فى أردية الحداد، وتقدمين بذلك الدليل على أصالتك وعظم تضحيتك، وليكن كل ذلك رصيدًا لك عند أولادك تظلين تطالبينهم به طوال العمر، وتَمُنِّينَ به عليهم إذا اقتضى الأمر.

عُقَدٌ وَبِدَعٌ وَجَهَالاَتٌ ما أنـزل الله بها من سلطان.

يُحَرِّمْنَ الحلال وَيُحَلِّلْنَ الحرام كما تَهْوَى نفوسهن.

ثم يظللن يصرخن من القيود التى كان لهن الفضل الأكبر فى عقدها، ويبصر الجاهلون حالهن فَيَنْسِبُونَ كل تلك المصائب إلى الإسلام وهو منها براء.

يقول الشيخ محمد الغزالى فى كتابه (قضايا المرأة): "إن من غرائب السلوك الإنسانى أنه هو الذى يصنع لنفسه القيود المؤذية، وهو الذى يخلق الخرافة ثم يقدسها!!".

نعم فالذنب الأكبر يقع على المرأة نفسها فى تكبيلها لنفسها بتلك القيود.

حقيقى أن المرأة فى مجتمعنا تعيش فى سجن كبير، ولكن المرأة نفسها هى السجان أيضًا.. ومعظم القيود التى تكبل المرأة وتردعها عن التمرد على كل الأوضاع الظالمة التى تعانى منها.. معظم هذه القيود تضعها النساء حولها.. أو بمعنى أدق فإن السبب فى هذه القيود هو رضوخ المرأة لطريقة التفكير التى تفكر بها النساء اللاتى حولها وخصوصًا العجائز منهن، ولا حل للمرأة للخروج من أسْرِ هذه الأغلال والقيود التى تحرق عمرها فى المظالم إلا أن تنتزع عن رأسها تلك المفاهيم الجاهلية التى يفكر بها هؤلاء النساء وتضعها تحت أقدامها، وتجعل من الإسلام والإسلام فقط مصدرها الوحيد فى تلقى الحلال والحرام والصواب والخطأ.

إن الله حَرَّرَنا بنعمة الإسلام من أسْرِ مظالم العبودية فلماذا نختار بأنفسنا الرضوخ فى عبودية الجهل والتقاليد والخرافات؟!!.

* * *

مفهوم النجاح
بين الإنسان الربانى
والإنسان النفعى

مفهوم النجاح

بين الإنسان الربانى والإنسان النفعى

مما لا شك فيه أن النجاح غاية يسعى إليها الجميع فى صراعهم الإنسانى.

ولذلك فمفهوم النجاح مفهوم هام للغاية وله أثره الخطير على الواقع الاجتماعى.

إننا إذا كنا نسعى جاهدين إلى النجاح فلا بد أن نتساءل أى نجاح هذا الذى نرتجيه؟

إن الموقف الإسلامى يعنى أن أى نجاح فى الوجود لا يصطبغ بصبغة الله فهو شىء فارغ لا قيمة له.

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (البقرة: ١٣٨).

ولكن النفعيين الذين صاروا الآن يسيطرون على مفاهيم المجتمع قد رسّخوا فى الأذهان مفهومًا للنجاح غاية فى الإضلال والقسوة، ولكنه أيضًا غاية فى الإقناع لغير المتعمقين فى الأمور.

لقد ربطوا بين مفهوم النجاح وبين تحقيق النتائج، (وهى قاعدة محورية فى الفكر البرجماتى النفعى)، ثم حصروا هذه النتائج فى النتائج والآثار المادية إن لم تكن النقدية فقط لا غير.

لقد حصر البرجماتيون الحقائق فى دائرة المنافع والمصالح المادية، وتحت ضغط الحاجة والحرمان من جهة، وابتعاث الرغبات والإغراء بتحقيقها من جهة أخرى، استطاعوا أن يشحذوا طاقات الناس نحو شىء واحد هو العمل على تحقيق هذه المنافع والمصالح بأية طريقة كانت، ومن هنا كانت كل هذه المفاهيم.

فعند أى جدال يقوم حول مدى نجاح شخص ما فإن السؤال الأساس الذى يطرح هو، ماذا حقق هذا الشخص من نتائج لكى يمكن وصفه بأنه شخص ناجح؟ بل كثيرًا ما يأتى السؤال المطروح بهذه الصيغة الأكثر حدة، هى: ما الذى حققه هذا الشخص من النقود والثروة لكى نصفه بأنه شخص ناجح؟

ومن نفس هذا المنطلق البرجماتى المرتبط بالنتائج يستمدون معيارهم فى الحكم على كل الصراعات فى الحياة.. فالشخص الوحيد الذى يمكن وصفه بالنجاح انطلاقًا من هذا المفهوم هو فقط الشخص الذى يستطيع أن يكسب الصراع الذى يدخل فيه، أو حتى الصراع الذى يُفْرَضُ عليه، بل كثيرًا ما لا يعترفون بذلك المكسب إلا لو كان مكسبًا كاملاً فقط.

إن الإسلام هو مرجعنا الوحيد الذى نستمد منه معاييرنا فى الحكم على الأشياء.

فالحقيقى ليس إلا ما يعتبره الإسلام أنه حقيقى.

والنافع ليس إلا ما يعتبره الإسلام أنه نافع.

وبادئ ذى بدء فالإسلام لا يعطى أية أهمية أو احترام للمصالح والمنافع المادية إلا فى حدود القدر الذى يلبى الحاجات الأساسية الحقيقية للإنسان، (أى: ما يسمى فى عرفنا الاجتماعى بالسِّتْر)، ويرى أن ما يزيد عن ذلك من حطام الدنيا هو قدر من عند الله لا يجب أن يتصارع الناس عليه، أما إذا ضحى الإنسان بالقواعد الشرعية من أجل تحقيق هذه الأشياء فإنه يكون بذلك قد سقط فى مصيدة الشيطان التى قد تؤدى به إلى الكفر فى نهاية المطاف.

وفى الحقيقة فإن لكل إنسان طريقته الخاصة فى تحديد الهدف الذى يسعى إلى تحقيقه ما دام لا يصطدم ذلك مع القواعد الشرعية فى الإسلام، لكن للمجتمع عادةً ما يحدد للأشخاص أهدافًا معينة يفرض عليهم العمل على تحقيقها، ويصفهم بالشذوذ أو الفشل إذا اتجهوا إلى أهداف غيرها، ولذلك يجب أن يتحرر الإنسان بالكامل عند تحديد أهدافه من المفاهيم الشائعة للمجتمع التى تعمل على صَبِّ البشر فى قوالب معينة مُعَدَّة سلفًا.. هذا من حيث تحديد الهدف.. أما من حيث النجاح فى العمل على تحقيقها فالإسلامُ له معياره الخاص فى ذلك والذى يختلف عن المعيار البرجماتى الذى لا يتعلق إلا بالنتيجة.

إننا إذا أردنا أن نحدد معيارًا لمفهوم الإسلام فَلْنَسْتَبْصِرْ بما وضعه الإسلام لمفهوم العمل الصالح.

إن العمل الصالح هو العمل الذى يبتغى غاية صالحة يرضى عنها الله، وهو يتعلق بالإرادة والفعل، أما النتيجة فإنها أمر لا يتعلق بإرادة الإنسان فقط وصلاح عمله، وإنما يتعلق أساسًا بالمشيئة الإلهية لوجودها.

هَبْ أن رجلاً نوى أن يَحُجَّ واجتمعت إرادته على ذلك وسعى إليه بالمال والزاد والراحلة، وفى منتصف الطريق مثلاً حال بينه وبين غايته حائل أرادته المشيئة الإلهية.. أفلا يكون عمله هذا عملاً صالحًا يثاب عليه؟!!.

بلى إن الإسلام يقرر فى موقف كهذا أن ثواب الحج يُحْسَبُ لذلك الرجل.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (الإسراء: ١٩).

وفى الحديث الشريف: "من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة"[١].

والحقيقة الواقعية للنجاح فى الصراع الإنسانى لا بد وأن تتعلق بمدى صحة التصرف الذى يسلكه الشخص الداخل فى هذا الصراع، ومدى حرصه على بذل ما فى وسعه لكى يصل إلى هدفه، مع العلم بأن معايير الحكم على صحة التصرفات يجب أن تتحرر من المفاهيم التقليدية الشائعة لها، ويجب أن تضع فى الاعتبار الظروف المحيطة بكل صراع بدقة، فإذا اتخذ الشخص الشروط الواجبة للنجاح فى الصراع الداخل فيه وعمل على تحقيقها فهو شخص ناجح بغض النظر عن النتائج التى تتحقق نتيجة سلوكه فى هذا الصراع.

بل ويقاس مدى نجاحه بمدى ما حققه فى سلوكه من تصرف مبدع ومجهود كبير.

والقول بغير ذلك وربط كل شيء بالنتيجة الحاصلة هو تغميض عن حقيقة ما يحدث فى الواقع من تدخل عوامل خارجية عن الإرادة – وعن تقديراتها – تقطع العلاقة ما بين السلوك المتخذ والنتيجة المرجوة منه.

فليس حقيقيًّا ما يذهب إليه بعض الأجلاف من الماديين الجهلاء من أن النتيجة السيئة تعبر عن السلوك الخاطئ، هذا على فرض اتفاقنا على المعيار الذى يحكم به على هذه النتيجة التى من الممكن أن نتابعها كل يوم بوعى جاد؛ لأن التجارب الواقعية تخبرنا أنه قد يحدث فى بعض الأمور أن تنقطع العلاقة ما بين التصرف السليم والنتيجة الحسنة، وأن

---

(١) السنن الكبرى للنسائى ٣٩٦/٤ حديث ٧٦٧٠، وفى الأوسط للطبرانى ٢٦٠/٤، وفى المعجم الكبير ١٦١/١٢ حديث ١٢٧٦٠، وسنن الدارمى ٤١٣/٢ حديث ٢٧٨٦، وصحيح ابن حبان ١٠٧/٢ حديث ٣٨٤، وكذا فى صحيح مسلم ٨٢/١ حديث ٣٥٤، وفى مسند أحمد بن حنبل ٣١٥/٤ حديث ٢٥١٩.

هناك بعض النتائج الحسنة قد تنتج - نتيجة تدخل عوامل خارجة عن الإرادة وتقديراتها - عن تصرفات خاطئة، وهناك بعض النتائج السيئة قد تنتج - نتيجة تدخل عوامل خارجة عن الإرادة وتقديراتها - عن تصرفات سليمة.

هنا يتضح التطابق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الواقعية.

فالحقيقة الدينية تقرر أن الإرادة الإنسانية على الرغم من أنها حرة من حيث اختيارها لما تفعل، ولكنها مقيدة بالإرادة الإلهية من حيث تحقيق النتائج.

والواقع يقرر أنه ليس كل ما يتمناه المرء يبلغه حتى ولو سعى إلى هذا الذى يتمناه بكل الخطوات المؤدية إليه؛ لأنه قد تتدخل عوامل أخرى ليس لها علاقة بإرادة الإنسان وتقديراتها تحول بين سعيه وبين تحقيق الغاية المرجوة منه.. هذه العوامل يقف أمامها الماديون حائرين، أما المؤمنون فَيَعُونَ جيدًا أنها بعض مظاهر المشيئة الإلهية؛ ولذلك فهم يطلبون العون من الله دائمًا على أن يوفقهم فى تحقيق أهدافهم.

وانطلاقًا من هذه الحقيقة الدينية الواقعية فإن المنطق الإيمانى الواقعى فى نفس الوقت يستوجب علينا أن نطبق نفس مفهوم العمل الصالح فى الإسلام على مفهوم النجاح فى الإسلام أيضًا.

وبذلك يرتبط مفهوم النجاح فى الإسلام بما يتعلق بالإرادة والفعل وليس بتحقيق النتائج، وبذلك يكون الشخص الناجح هو الشخص الذى يتصرف التصرف السليم فى صراعه مع الحياة للوصول إلى هدفه (بالمعايير الناضجة المتحررة من المفاهيم التقليدية فى الحكم على التصرفات، والتى تضع فى اعتبارها الظروف المحيطة بكل صراع بدقة)، والذى يحرص على بذل ما فى وسعه لكى يصل إلى هذا الهدف.. بِغَضِّ النظر عن النتائج التى تتحقق عن سلوكه هذا.

بل ويقاس مدى نجاحه بمدى ما حققه فى سلوكه هذا من تصرف مبدع ومجهود كبير بِغَضِّ النظر عن النتائج أيضًا.

* * *

قيم المواجهة

الواقعية الإصلاحية فى مواجهة الواقعية الاستسلامية

إن الإسلام يقشع الضباب والغيوم عن بصيرة الإنسان ويحرره من المخاوف والأوهام والعُقَدِ والمعتقدات الباطلة التي يكبله بها مجتمعه لكي يرى الحقائق كما هي وبلا خداع.

ولذلك فالمسلم الحقيقي هو المسلم الواقعي، ولكن بأى مفهوم للواقعية يا ترى؟.

إنها الواقعية التي تتعامل مع الواقع الحقيقي الذى لا تتدخل فيه بعض الأباطيل لمجرد أن الناس قد اعتادوا اعتبارها جزءا من الواقع.

إنها الواقعية الخالية من العُقَدِ الموهومة التي تؤدى إلى التخاذل الدائم واعتبار ذلك واقعية.

إنها الواقعية الخالية من الخوف الدائم من الصراع مع الباطل، ومن ثَمَّ إلى الاستسلام له، واعتباره منذ البدء صراعًا مع الأمر الواقع الذى يفرض نفسه على الجميع، بل إنها الواقعية التي لا تستسلم للباطل حتى ولو كان قد فرض نفسه وصار أمرًا واقعًا بالفعل ما دامت هناك إمكانات موجودة لتغييره.

إن الإسلام ينير بصيرة الإنسان حتى تخترق الضباب والغيوم وكل ما يحول بينه وبين حقائق الواقع.

يقول الأستاذ سيد قطب: "والدين لا يواجهه الواقع أيًا كان لِيُقِرَّهُ ويبحث له عن سند منه وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافتة المستعارة، إنما يواجه الواقع لِيَزِنَهُ بميزانه فَيُقِرُّ منه ما يُقر ويلغى منه ما يلغى، وينشئ واقعًا غيره إن كان لا يرتضيه، وواقعه الذى ينشئه هو الواقع"[1].

ولكن ما زال هناك الكثير من المغفلين والضعفاء لا يعقلون الواقعية إلا على أنها الاستسلام للأمر الواقع، وكثيرًا ما لا يكون هذا الأمر الواقع الذى يستسلمون له قد تم

---

(١) معالم فى الطريق، ص: ١٠٦.

بالفعل، ولكنهم أرادوا أن يريحوا أنفسهم من عناء الصراع معه بمجرد ظهور بعض ملامح تفوقه عليهم فى بعض الأمور.

بل وكثيرًا ما يكون هذا الأمر الواقع الذى يستسلمون له قد زالت أهم ركائزه وصار معرضًا للانهيار ومن ثَمَّ للزوال فى أى وقت، ولكنهم يظلون مستسلمين له على أنه الأمر الواقع الذى يفرض نفسه على الجميع.

إن الواقعية الحقيقية هى أن نعى أن الواقع الذى زالت أهم ركائزه وصار عرضة للانهيار يكون من الجهل والغباء بل والجنون أيضًا الحديث عن الاستسلام له على أنه أمر واقع، بل يكون الأمر الأكثر معقولية هو الاستسلام للواقع الجديد الذى تظهر ملامحه فى العوامل التى أدت إلى زوال الواقع الراهن، والعمل على التعجيل بذلك الواقع الجديد.

وربما يكون ذلك الواقع الجديد المُرْتَقَبَ يفرض نفسه على الواقع الراهن المتصدع بما يكمن فيه من إمكانات فعالة وحضور قوى، ولذلك يصير هو ذاته أمرًا واقعًا بالفعل يجب الاستسلام له.

فهناك فرق كبير بين الواقعية الاستسلامية والواقعية الإصلاحية.

فالواقعية الاستسلامية هى أن ترضى بالأمر الواقع كما هو، وتشعر بالعجز أمامه، وتستسلم لما يريده منك، بل وتستسلم لتياره أينما دفعك ذلك التيار.

وهؤلاء الاستسلاميون الذين يبررون ضعفهم وتخاذلهم بالواقعية يسلمون أنفسهم للظروف تسليمًا مخزيًا، فحتى لو كانت تلك الظروف قد دفعتهم لأن تنزلق أقدامهم فى إحدى المنحدرات فإنك تجدهم يستسلمون تمامًا لذلك الانزلاق، حتى ولو توفرت لهم إمكانية جديدة لمقاومته أو للتوقف فيه عند نقطة ما يستطيعون منها الانطلاق والعودة إلى ما كانوا عليه فيما قبل.

ولكن ما ارتضوه من استسلام مُخْزٍ جعلهم لا يريدون بذل أى قَدْرٍ من المحاولة، وكأنهم يجدون راحتهم فى الانزلاق تمامًا إلى الهاوية التى ينحدرون إليها.

إنها الواقعية التى تؤمن بالله وقدرته ومشيئته وأقداره، التى تجعل كل شىء عرضة للتغيير بسنن الله فى الأرض، التى تجعل الأيام دولاً بين الناس.

وفى الحقيقة فإن كل واقع مهما بلغت سطوته فهو يحمل فى داخله عوامل تغييره،

والمؤمن القوى ذو البصيرة النافذة هو الذى يستطيع أن يدرك هذه العوامل، ويدرك كيفية استغلالها بالطريقة التى تجعل منها منطلقات للتغيير إلى الواقع الآخر الذى يرتبط بالمُثُل الإيمانية المنشودة.

إن الأمر يمر بالإنسان المؤمن على ثلاثة مراحل:

* مرحلة الوعى القوى والبصيرة النافذة.

* ثم التحدى والمحاولة.

* ثم التحمل والصمود.

فالواقع الدَّاهِمُ الذى ينصح الاستسلاميون بالانحناء لعاصفته يحمل فى الغالب كما قلت عوامل تغييره، ولكن استيعاب ذلك يحتاج إلى الوعى القوى بما يحيط به من ظروف وما يحمله من إمكانات حقيقية، والبصيرة النافذة التى تستطيع اكتناه عوامل التغيير تلك والتفرقة بينها وبين أمانى السراب والأوهام.

وعلى فرض أننا أمام واقع قوى يفرض نفسه، لكنه واقع ظالم لعين ما أنزل الله به من سلطان، فهل نقف أمامه مكتوفى الأيدى ونحن نبصر أعمارنا تتطاير كالدخان من حريق شروره؟!!.

إن هذا هو الجنون ذاته.

إن الحياة لو امتدت فى أروقة اليأس والعدم والكآبة، وصارت كالعيش فى تابوت متحرك، أفلا يكون الموت الناقل إلى رحمة الله خيرًا منها؟!!.

وأى عقل هذا يَدَّعيه الانهزاميون لكى يبرروا به استسلامهم المخزى لواقع مثل هذا.

إنه إذا لم يكن أمامك بديل سوى أن تعيش فى الحياة بلا حياة، فإن الموقف العاقل الوحيد هو أن تتحدى ذلك الواقع الذى يفرض عليك أن تعيش هذه الحياة مهما كان ثمن هذا التحدى؛ لأنه على أى حال سيكون أقل كثيرًا مما تدفعه بالفعل باستسلامك له، وهل هناك خسارة أكبر من أن يخسر الإنسان كل ما هو جوهرى فى حياته.

إن الذين يشترون آخرتهم بدنياهم يخسرون الدنيا ويكسبون الآخرة وما أربحها من صفقة، أما الذين يرضون الواقع الظالم لهم ثم يستمرءونه ويدافعون عنه ويناصرونه فإنهم لا

يخسرون دنياهم فقط وإنما آخرتهم أيضًا.

ثم تأتى مرحلة التحدى والمحاولة، وهى تعنى أن الأمر ليس لَهْوًا، وأنك تتحدى تيارًا جارفًا؛ ولذلك فعليك أن تأخذ بشروط ذلك التحدى، وأن تقبل نتائجه وما يفرضه عليك من تضحيات، وعليك أن تستغل عوامل التغيير هذه إلى أقصى درجة ممكنة، وأن تتبصر دائمًا ما هى المستجدات التى تحدث لكى تستغلها أفضل استغلال، فلا أحد يدرى ماذا من الممكن أن يحمل القدر من مستحدثات بشكل دائم، بل وعليك أن تحاول أن تصطنع بنفسك مستحدثات للتغيير فمحاولتك هذه وما ينتج عنها هى فى ذاتها قَدَرٌ من أقدار الله.

وليس شرطًا أن تنجح مائة فى المائة، إن أى نسبة من النجاح فى هذه المواقف العسيرة أمر عظيم، وحتى ولو لم تأتِ بأية نسبة من النجاح.

فالمحاولة نفسها نجاح.

وهى أمر واجب فى ذاته.

ووجوب المحاولة يكون حاسمًا عندما لا يكون للإنسان طريق أمامه غير الضياع.

فإما أن يحاول وإما أن يقبل واقعًا مدمرًا قاتلاً.

وعندما لا يكون للإنسان بديل سوى الموت ذاته سواء كان ماديًّا أو معنويًّا فإن وجوب المقاومة والمحاولة يكون هو الأمر المنطقى الوحيد فى هذا الوجود.

ثم تأتى مرحلة التحمل والصمود والصبر والمثابرة.

ولا بد من إعداد الزاد للدخول فى هذه المرحلة، وهو أمر يطفو بكل ما تحمله النفس المؤمنة من زهد وصبر وإصرار على الهدف ومثابرة على تحمل المكاره والمشاق، وعماد الأمر كله يتحدد فى مدى إصرارها على إحقاق الحقوق التى أحقها الله فى هذا الوجود، والرضا بما قسمه الله لها فى هذا الصراع.

إن مطاولة الصراع تغرى النفس بالوهن وتُجْلِى النفوس الكبار.

وبين هذه وذاك لحظة ضعف كبيرة تُسْقِطُ أعلى النفوس من أعلى القمم إلى أردى مهاوى الانهيار.

وأصعب لحظة فى الوجود هى تلك اللحظة.

نعم إن أصعب لحظة فى الوجود هى تلك اللحظة التى تقع بين قمة الصمود وبداية الانهيار.

لكن الربانيين الذين يتعلقون بالله ويعتصمون به لا تسقطهم تلك اللحظة، الذين يتوكلون عليه ويوقنون بما أُعَدَّ لهم من ثواب الآخرة لا تسقطهم تلك اللحظة.

الذين يصبرون على الحياة من أجل إعلاء كلمة الله وتحقيق عدله ويرتضون فى سبيل ذلك ما قسمه الله لهم فى هذه الدنيا لا تسقطهم تلك اللحظة.

ولكن أفِقْ أيها الإنسان.

من قال لك إن الله يتركك وحدك فى مثل هذه المواقف؟!!.

من قال لك إن الحسابات الأرضية فقط هى التى تحكم مثل هذه الأمور.

من قال لك إن الإرادة الإلهية لن تتدخل، وإن فَرَجَ الله لن يأتى بما ليس فى الحسبان.

إن عليك فقط أن تُعِدَّ للأمر عُدَّتَهُ، وأن تجعل تقوى الله هى زادك فى هذا الوجود، أما ما سيكون وما سيصير فهو أمرٌ بيد الله وحده.

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق: ٢- ٣).

* * *

العقل والجنون والشجاعة والتهور

باديء ذى بدء فإنه يجب التمييز بين الذكاء والعقل وذلك لاعتقاد الكثير من الناس أنهما يمثلان شيئًا واحدًا، وهو ما يودى إلى الخلط فى كثير من الأمور والوقوع فى سلسلة من الأحكام الخاطئة فى الحكم على الأشخاص وتصرفاتهم، كالحكم على شخص ما بالغباء لأنه تصرَّف تصرفًا ما يتسم بالتهور أو عدم التعقل، أو الحكم على شخص ما بالذكاء لأنه تصرَّف تصرفًا يتصف بالعقل.

وهكذا فالشخص الذكى لدى هؤلاء هو الشخص العاقل والشخص الغبى هو الشخص قليل العقل.

وفى الحقيقة فإن الأمرين يختلفان تمامًا.

فالذكاء أمر يتعلق بالقدرات الإبداعية لدى الشخص، وهو أمر وراثى لا إرادة فيه[1]، وإن يكن تنشيطه بالاجتهاد الدائم أمرًا بالغ الأهمية.

أما العقل فهو أمر يتعلق بقدرة الشخص على التحكم والتوجيه فى تصرفاته، ولا يستدعى هذا امتلاكه لقدر غير محدود من الذكاء، وإنما يكفى لامتلاكه أن يتوافر فيه الذكاء العادى، مع ملاحظة أنه إذا توفر للشخص امتلاكه للذكاء الكبير المتفوق والعقل القوى المتحكم لكان قوة عظيمة ينبغى أن يعمل لها ألف حساب.

وينبنى على ما سبق أنه إذا كان الشخص ذكيًّا فإن ذلك لا يستدعى أن يكون عاقلاً أيضًا، فقد يكون عبقريًّا ومع ذلك فإنه لا يبالى بتوجيه تصرفاته، أو التحكم فى سلوكه، أو أنه قد يتخذ فى حياته مسارًا منحرفًا أو شاذًّا لا يرتضيه أحد من العقلاء، ومع ذلك يظل كما هو شخصًا عبقريًّا، مع أنه فى الوقت نفسه قليل العقل.

---

(١) راجع الذكاء الإنسانى: د. محمد طه.
وعلم النفس العام: د. يوسف كرم.

وقد يكون الشخص عاقلاً، (أى: متَّزنًا ومتحكِّمًا فى تصرفاته)، ولكنه مع ذلك متوسط الذكاء لا يستطيع التعمق فى الكثير من الأمور التى تتطلب قدرات خاصة من الذكاء لا تتوفر له، كما أنه لا يستطيع ابتداع أمور جديدة لها جدوى يُعْتَدُّ بها.

ولكن الأمر الأكثر خطورة فى حياتنا هو المعيار الذى ينطلق منه حكمنا على تصرف ما من التصرفات أنه تصرف عاقل، فالتصور الشائع للتصرف العاقل هو أنه الذى يرتبط دائمًا بالهدوء وعدم الانفعال وعدم المغامرة والتعرض للمخاطر.

أمَّا فى عرف التقاليد فإن التصرف العاقل هو التصرف المعتاد الذى ينتظره المجتمع من شخص ما فى موقف ما من المواقف، فإذا خالف هذا الشخص ذلك التصرف المعتاد كان تصرفه غير عاقل.

أما فى حكم المفاهيم النفعية التى صارت تشكل العقول الآن فإن التصرف العاقل هو التصرف الذى يأتى على صاحبه بأكبر قدر من المنافع المادية الممكنة ولا يعرضه لأى من الخسائر سواء المادية منها أو غير المادية.

والحصيلة الناتجة من التصورات التى تنطلق من المعايير السابقة عن التصرف العاقل تجعله فى الحقيقة أبعد ما يكون عن العقل.

فليس من المعقول أن يرتبط التصرف العاقل بالهدوء وعدم الانفعال وعدم المغامرة وعدم التعرض للمخاطر إذا كان الموقف المتعلق به يقتضى ذلك إلا إذا ارتبط العقل عند هؤلاء بالبلادة والبرود والجبن والضعف والتخاذل والسلبية.

بل إنه قد يكون الانفعال والعصبية دليلاً على العقل وليس العكس؛ لأنه قد يكون تعبيرًا عن التمرد على أوضاع قاسية طاغية، ويكون مقابلتها بالرضا والهدوء هو درب من الجنون ذاته، ولكن ماذا تفعل إذا كانت المفاهيم الشائعة عندنا قد جعلت العقل مرتبطًا بالهدوء؟!.

وليس من المعقول أيضًا أن يرتبط التصرف العاقل بالتصرف المعتاد للشخص العادى إلا إذا ارتبط مفهوم العقل لدى هؤلاء بمحدودية الذكاء، وفقدان القدرة على الإبداع، وحمل النفس على الانسياق وراء القطيع أينما صار به مالكوه.

وليس من المعقول أيضًا أن يرتبط التصرف العاقل بتحقيق أكبر قدر من المكاسب المادية، وعدم تعريض النفس للتضحية بشىء من الأشياء إلا إذا ارتبط مفهوم العقل لدى

هؤلاء بالانتهازية والأنانية والإلحاد والكفر بالغيبيات والحياة الأخرى والثواب والعقاب.

أى أننا إذا انسقنا وراء المفاهيم الشائعة عن الإنسان العاقل والتصرف العاقل لوجدنا أن العاقلين فى مجتمعاتنا هم أكثر الناس سلبية أو نمطية أو انتهازية.

ومن الطبيعى أن تكون هذه المفاهيم هي الأداة التى يتم بها تشكيل العقول النامية للأجيال الصاعدة؛ لأن هذه التركيبة المُشَوَّهَة بما تحمله من جهل وتخلف ورجعية تكون القدوة التى يتمثلونها فى حياتهم أو يُدْعَوْنَ إلى تَمَثُّلِهَا.

ولنا أن نتساءل بعد ذلك عما يمكن أن ينتظره مجتمعنا من تقدم أو تحرر من أغلال التبعية التى تستعبدنا إذا كان العقلاء عندنا هم الذين تتصنع عقولهم بمثل هذا التشكيل المُشَوَّه؟

وكيف من الممكن استنهاض المسلمين إذا كانت تتحكم فى سلوكهم أمثال تلك المعايير؟!

والمنظور الإسلامى للسلوك العاقل الرشيد يرتبط باقتضاء الصراط المستقيم وعدم الانحراف أو الشذوذ عنه.

ومناط المسئولية الإنسانية (الأمانة، أى: حرية الإرادة) فى الإسلام هى التى يتمحور عليها وجود الإنسان، وبمدى ارتباط العمل الناتج عن هذه المسئولية (الفعل أو اللافعل) باقتضاء الصراط المستقيم يمكن إطلاق وصف السلوك العاقل عليه.

أى أن السلوك العاقل فى الإسلام لا يرتبط فقط بالامتناع عن فعل شىء وإنما يرتبط أيضًا فى الأساس بالشِّقِّ الإيجابى وهو وجوب القيام بالفعل إذا اقتضى الأمر ذلك.

ولكن هكذا انقسم الوعى الإسلامى وَرَكَنَ الخامدون إلى الشق السلبى فقط وهو الامتناع عن الفعل لكى يقتربوا بهذا المفهوم الساذج من واقعهم السلبى الذى ينطلقون منه فى تقدير السلوك العاقل الرشيد.

وانطلاقًا مما سبق فإنه إذا كان العقل فى بعض المواقف يقتضى الامتناع عن فعل سلوك معين فإن العقل أيضًا فى مواقف أخرى يقتضى اتخاذ السلوك الإيجابى بفعل ما يجب أن يفعله الإنسان.

والحكاية ليس لها علاقة على الإطلاق بأى نوع من الهدوء أو الانفعال والتوتر؛ لأنه إذا كان حدوث الانفعال فى موقف لا يحتمله له دلالة لا عقلانية فإن إبداء الهدوء أيضًا فى بعض المواقف التى تقتضى الانفعال له دلالة لا عقلانية.

كما أن الحكاية ليس لها علاقة بالمخاطرة أو عدمها، فمن قال إن عدم المخاطرة تصرف عاقل رشيد، فإن هذا لا يمكن أن يكون كذلك إلا عند الأمم المتخاذلة المستكينة المُستَعْبَدَة المُستَذَلَّة؛ لأن عظائم الأمور فى التاريخ كله قامت على المخاطرة وليس على الحسابات الأكيدة المأمونة النتائج.

إنه إذا كان التغيير أو الإصلاح أو التحرر أو الخروج من توابيت الواقع المهين الذى يُفْرَضُ على الإنسان يقتضى المخاطرة فعند ذلك لا تكون المخاطرة هى فقط التصرف العاقل الرشيد، بل إن الانتكاس والتخاذل عنها يكون تصرفًا لا عقلانيًّا على الإطلاق.

أما إذا كانت المخاطرة هى الحل الوحيد لانطلاق الإنسان من أَسْرِ واقعه المرير فعند ذلك يكون عدم المخاطرة هو الجنون ذاته.

فالعقل فى المخاطرة إذا كان الأمر يتطلب المخاطرة.

والعقل فى اجتنابها إذا كان الأمر يتطلب اجتنابها.

وكما أن المخاطرة فى الأمور التى لا تقتضيها تهور ولا عقلانية.

فإن عدم المخاطرة فى الأمور التى تقتضيها تخاذل ولا عقلانية.

ولا شىء فى هذا الوجود لا يتعلق بالخسائر.

إن أمر الدنيا كله يقوم على الموازنة بين المكاسب والخسائر.

أمَّا التصور الساذج بأن العقلانية هى البعد الدائم عن الخسائر المحتملة بالبعد عن المواقف الإيجابية فهو مجرد وهم من الأوهام.

فقد لا تفعل شيئًا فى موقف من المواقف نتيجة الخوف من الخسائر ويكون واقع الحال أنك تخسر أكثر كثيرًا من عدم فعلك لذلك الشىء، ولكن السلبية التى تحكم تصرفاتنا تشحذ نفوسنا عادةً بتضخيم الخسائر المنتظرة من تصرفاتنا، وتخدرنا عن الوعى بالخسائر الجسيمة التى نعانى منها، والتى سوف تتضخم أكثر إذا لم نتخذ السلوك الإيجابى الذى يقتضيه موقف ما من المواقف.

فكونك تخسر من فعل شىء فإن ذلك لا يجب أن يدعوك إلى عدم فعله حتى ولو كانت الخسارة كبيرة ما دامت الخسائر الناجمة عن عدم فعلك إيّاه أكبر كثيرًا.

ولذلك فهنا تبرز أهمية الوعى.. الوعى بمفهومه الشامل والقائم على التصـــور الإيمـــانى المرتكن على الآخرة، الذى يتسع للحقائق الدينية المُوَجِّهَةِ للسلوك والحقائق الواقعية الـــتى يُرَادُ أن يتخذ هذا السلوك إزاءها.

الوعى المتحرر من الخرافات والتصورات الموهومة والمفاهيم الدينية الزائفة ومعايير القيم السلبية والموروثة والعُقَد الباطلة للتقاليد المُشَاعَةِ وضلالات المفاهيم السائدة.

لأن الإنسان الذى يُقْدِمُ على اتِّخَاذ موقف مصيرى له دوره الحاسم فى توجيه حياته يقتضى المخاطرة، فإن ذلك يتطلب منه الوعى الكافى الذى يزن به المكاسب والخسائر من هذا الموقف، فكيف من الممكن أن يمتلك الإنسان هذا الوعى إذا كان مكبلاً بكل المفاهيم الباطلة؟!!.

كيف من الممكن أن يوازن بين المكاسب والخسائر إذا كانت المعايير التى يحتكم إليها فى ذلك هى معايير باطلة ما أنـــزل الله بها من سلطان؟!!.

كيف من الممكن أن نوازن بين المكاسب والخسائر إذا كانت المعايير التى نحتكم إليهـــا تجعل المكاسب خسائر والخسائر مكاسب؟!.

كيف من الممكن أن توازن بين ذلك إذا كانت المعايير التى نحتكم إليها تشحذ نفوســـنا فى تضخيم الخسائر المنتظرة من اتخاذ السلوك وتخديرنا بالتهوين من الخسائر التى نعانى منها بالفعل والتى من الطبيعى أن تزداد تفاقمًا إذا لم نتخذ السلوك المنتظر؟!!.

لا بد من امتلاك الوعى الإيمانى الذى يُفَرِّقُ بين الخسائر الموقوتة والخسائر الأبدية والذى لا يعتمد فقط على موازين الدنيا، فحساب المكاسب والخسائر من منظور الدنيا.. يختلف تمامًا عن حسابه من منظور الدنيا والآخرة.. يختلف عن حسابه من منظور تقديم الآخـــرة على الدنيا.

أيها الإنسان الذى يحترق عمره فى توابيت العرف والتقاليد والجهل والخرافـــة والجـــبن والانكسار والسلبية.

أما آن لك أن تنقذ نفسك وتحطم تابوتك؟؟؟...

أما زلت تتردد فى ما هو القرار الصحيح؟!!.

سَلْ نفسك أولاً:

هل أنت تحررت من المفاهيم البالية من الأعراف والتقاليد التى سَحَنَكَ الناس فيها؟!!.

هل أنت تمتلك الوعى الإيمانى الصادق الذى يجعل الدنيا منطلقًا للحياة الخالدة فى الآخرة؟!!.

هل أنت تمتلك التقدير الدقيق للمكاسب والخسائر والموازنة بينها من منظور تقدم الآخرة على الدنيا؟!!.

هل أنت تمتلك الشجاعة اللازمة لاتخاذ قرارك وتَحَمُّلكَ نتائجه أيًّا كانت هذه النتائج؟!!.

سَلْ نفسك هذه الأسئلة أوَّلاً ثم:

اتخِذْ قَرَارَكَ.

* * *

الإيجابية والسلبية

فى الحقيقة إننى قد استهدفت عند كتابتى لهذا الكتاب أن يتدفق تيار الإيجابية فى كل صفحاته، إلا أننى قد رأيت أن الأمر يقتضى التركيز فى دفع هذا التيار فى فصل خاص به تبيانًا للفكرة وَإِبْرَازًا لها.

ولهذا أقول إن العلاقة بين الإيجابية والإسلام علاقة عضوية لا يمكن لكل ذى فكر الذهول عنها، فتيار الإيجابية يتدفق فى كل عروق الإسلام وفى كل نصٍّ من نصوصه وفى كل حدث من أحداثه فى تاريخه الأمثل وسيرته العظمى.

فرسالة الإسلام تتمحور أساسًا حول العمل.. حول الحركة.. حول الفعل.. ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥).

ومعيار الإيمان فى الإسلام يتحدد أساسًا على مدى قدرة الإنسان على مواجهة الخطأ (المنكر) "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"(١).

ولقد هاجم الإسلام بعنف السلبية المتمثلة فى السكوت عن الحق، كما جاء فى الحديث الشريف: "السَّاكت عن الحق شيطان أخرس"(٢).

وكما جاء فى قوله ﷺ: "والله لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر ولتأخذُنَّ على يد الظالم ولتأطرُنَّه على الحق أطرًا ولتقصرُنَّه على الحق قصرًا أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم"(٣).

---

(١) سنن البيهقى الكبرى ٦/٩٥، ١٠/٩٠، وسنن ابن ماجة ٢/١٣٣٣ حديث ٤٠١٣، وفى صحيح ابن حبان ١/٥٤١ حديث ٣٠٧، وكذا فى صحيح مسلم ١/٥٠ حديث ١٨٦.

(٢) انظر: فقه السنة للسيد سابق ٢/٦١١.

(٣) انظر: ص: ١٧١، سبق تخريجه.

وكما جاء أيضًا فى الحديث النبوى فيما معناه: "لا يقفن أحدكم بموقف يضرب فيه رجل فإن اللعنة تقع على الجميع"(١).

وجعل الإسلام مجاهدة المنكر ذروة سنام العمل الصالح كما جاء فى الحديث "وذروة سنامه الجهاد"(٢).

وجعل كلمة الحق عند السلطان الجائر قمة الجهاد: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"(٣).

بل إن مجرد الصمت والنظر نفسهما فى الأمور التى تستدعى ذلك يتحولان فى الإسلام إلى إيجابية متدفقة، كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ: (أوصانى ربى بتسعٍ أوصيكم بها...)(٤).

حيث جاء من بين هذه الوصايا التسع: "أن يكون صمتى فِكْرًا ونطقى ذِكْرًا ونظرى عِبَرًا"(٥).

فالصمت فى الإسلام ليس وقتًا يُهْدَرُ عبثًا، وإنما هو طاقة فكرية ترتقى بالإنسان إلى الله، وقد تؤتى ثمارها قوة دافعة تدفع هذا العالم أجمع خطوة إيمانية ثائرة إلى تعاليم الله.

والنظر فى الإسلام ليس وسيلة لتلهية النفس بالمشاهدات الجميلة، وليس مَنْفَذًا لإيقاظ شهواتها.

إنما النظر وسيلة الإنسان لاستقراء أحداث العالم، واستقراء آيات الله فى خلقه وما أبدعه فى الوجود من صنائع، والتماس العِبَرِ من كل ذلك.

أمَّا الذين يهدرون أعمارهم عبثًا عاكفين على رقعة شطرنج أو كوتشينة أو طاولة فمن غير المعقول أن يكون المنطق الإيمانى قد تعمق داخل نفوسهم.

---

(١) كنـز العمال ٣٩٧/٥ حديث ١٣٤١١، ومجمع الزوائد ٤٤٣/٦ حديث ١٠٧١٠، وفى الترغيب والترهيب ٢٠٧/٣ حديث ٣٧٠٥.

(٢) السنن الكبرى للنسائى ٤٢٨/٦ حديث ١١٣٩٤، وفى شرح السنة للبغوى ١٤/١، وفى المعجم الكبير للطبرانى ٥٥/٢٠ حديث ٩٦، وفى سنن ابن ماجة ١٣١٤/٢ حديث ٣٩٧٣، وفى مسند أحمد ابن حنبل ٢٣١/٥ حديث ٢٢٠٦٩.

(٣) السنن الكبرى للنسائى ٤٣٥/٤ حديث ٧٨٣٤، وفى شرح السنة للبغوى ١٧٦/٥، ٢٠٩/٧، وفى سنن الترمذى ٤٧١/٤ حديث ٢١٧٤، وفى سنن ابن ماجة ١٣٢٩/٢ حديث ٤٠١١.

(٤) جامع الأصول من أحاديث الرسول لأبى السعادات ابن الأثير ٩٣١٧/١١، ٩٤٣٢/١، وفى مشكاة المصابيح للتبريزى ١٦٢/٣ حديث ٥٣٥٨، باب [التوكل والصبر]، ط. [المكتب الإسلامى – بيروت، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى].

(٥) المصدر السابق.

وأى مُطَّلِع على سيرة المسلمين الأوائل يشاهد حركة دءوبة من التغيير والمواجهة لكـــل التحديات القائمة، وانطلاقًا دائمًا نحو اقتحام الأهداف التى لم تكن تقف فى الأغلب الأعَمّ عند حدود العقل والواقع وتوازنات القوى ومختلف المفاهيم التى يستند عليها الســـلبيون فى تبرير سلبيتهم.

والمستبصر فى السِّيَرِ الشخصية للمسلمين الأوائل يستخلص منها هذا السلوكَ نفسه.

إنهم لا يقفون من الدنيا موقف المتفرِّج أو المُحَايِد أو المستكين الذى يرتضى ما تقذفه له من فضلات سواء على المستوى المادى أو المعنوى، إنما هم الذين كانوا يصـــنعون الـــدنيا ويجبرون العالم على متابعة ما يفعلونه بانبهار.

تجلَّت هذه المواقف الإيجابية فى جهادهم للكفار وفى فتوحاتهم ومعـــاركهم العســـكرية غاية التَّجَلِّى، كما تجلَّت أيضًا فى حكمهم للشعوب وعدم توانيهم عن إقامة العـــدل بـــين أهلها مهما كانت الخسائر.

ها هو عمر ﷺ يُصِرُّ على أن يَقْتَصَّ أعرابى لنفسه من أمير نصرانى- كان قد أســـلم - لَطَمَهُ على وجهه، حتى ولو أدى ذلك إلى أن يرتد هذا الأمير بعد ذلك ويلتحق هو وبعض قومه بأعداء المسلمين من الروم.

أما فيما يتعلق بحياتهم الشخصية فقد كان إذا أراد أحدهم شيئًا أباحه الله لم يقف ينتظر فى استكانة واستسلام، بل كان يتقدم نحو ما يريده بثبات وقوة دون التقيد بأى معيار آخر ودون أن يكَبِّلَ حركته حياء أو خوف.

عندما أراد عبد الرحمن بن العوف أن يقوم بالتجارة بعد حادثة الهجرة المباركة لم يقف ينتظر المساندة من أحد، وإنما ذهب ليقتحم السوق اقتحامًا وليصبح بعد ذلك واحدًا مـــن أغنى المسلمين تُقَسَّمُ ثروته من المعادن النفيسة بالفئوس.

وإذا أرادت امرأة الإدلاء برأيها فى شأن من شئون المسلمين أمام الرسول ﷺ أو أمـــام أحد من الخلفاء أبدت رأيها بحرية كاملة دون حرج.

وإذا أعجبت امرأة برجل تقدمت لخطبته لم تجلس تضع يدها تحت خدها أمـــلاً فى أن ينتبه لوجودها يومًا ما وهو ما قد لا يحدث أبدًا.

والغريب أن هذا العمل لو حدث فى واقعنا المعاصر من أحد النساء فى بعض مجتمعاتنـــا

فإنه يُعَدُّ ضربًا من الجنون.

وإذا أراد رجلٌ منهم أن يزوِّجَ ابنته فإنه لا يجد غضاضةً فى أن يَعْرِضَهَا على من يرضاه لها بعلاً من المسلمين[1].

وامرأة تدفع أولادها الأربعة للاستشهاد فى سبيل الله وتتقبل نبأ استشهادهم بكل صلابة بعد أن كانت قد ملأت الدنيا صخبًا على موت أخيها فى الجاهلية[2].

وامرأة تصرخ فى وجه ابنها الذى أصابه الوَجَلُ من التنكيل بجثته بعد موته: "وهل يضير الشاه سلخها بعد ذبحها"[3].

وعلماء يجوبون الأرض ارتحالاً للحصول على بضعة أحاديث تناثر ممن يحملونها فى أطراف الأرض[4].

حركة..

إقدام..

مواجهة..

اقتحام..

استبسال..

استشهاد..

سواءً على مستوى التحرك الجماعى أو على مستوى السلوك الشخصى.

فالإيجابية كموقف عام هى أن تريد وأن تمضى بكل ثبات وقوة ووعى نحو تحقيق ما تريده، والسلبية هى أن تنتظر أن يحدد لك الآخرون ما يجب أن تريده وأن تنتظر أيضًا اللحظة التى يمنحونك فيها ما أرادوا.

أما السلبية فهى أن يحدد لك المجتمع دورك فى الحياة، أو أن تترك الأمر الواقع يحدد لك ذلك.

---

(١) المقصود عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) المقصود الخنساء الشاعرة ﷺ.

(٣) المقصود أسماء بنت أبى بكر ﷺ.

(٤) المقصود الإمام البخارى وأمثاله ﷺ.

والإيجابية هى أن تُخْضِعَ أنت المجتمع لقبول ما تريد، وأن تعمل على دفع هـذا الأمـر الواقع من مكانه لإرساء أمر واقع جديد يتفق مع أهدافك أنت.

أما السلبية فهى أن تترك أنت الإمكانات البسيطة التى تراها متاحة لك تحدد لـك مـا يمكنك فعله.

والإيجابية هى أن تدفع أنت هذه الإمكانات البسيطة وتوجهها بالطريقة التى تحاول من خلالها الحصول على ما تريد تحقيقه.

والبعض قد يعتقد أن الإيجابية قد تتمثل فى قدرة الإنسان على انتهاز الفرص التى قـد تسنح له، ولكن الإيجابية الحقيقية هى ألا ينتظر الإنسان هذه الفرص التى قد تسنح له أو قد لا تسنح، وإنما عليه هو أن يصنع فرصته بنفسه.. عليه هو أن يدفع الظروف إلى الطريـق الذى يؤدى إلى صنع فرصته.

الإيجابية هى أن تتقدم ابنة سيدنا شعيب ﷺ نحو أبيها وتقول له قاصدة سيدنا موسى:

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ (القصص: ٢٦).

والإيجابية أيضًا أن يتقدم سيدنا شعيب إلى سيدنا موسي (عليهما السلام) قائلاً:

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ ﴾ (القصص: ٢٧).

الإيجابية هى أن تتقدم بكل ثبات وقوة ووعى نحو هدفك وتنتزعه انتزاعًا.

والسلبية هى أن تنتظر وتضع يدك تحت خدك تراقب إلى أين سيمضى هـدفك هـل سيأتى إليك أو لا يأتى؟!!

هل هذا يعنى أن الإيجابية اندفاع وتهور؟!!

لا.. إن الإيجابية كفعل ينطلق من المنظور الإسلامى داخل إطارين هما: مدى شرعية الفعـل ومدى توافقه مع التقدير الواعى للظروف (ويجمع بين الإطارين مفهوم الوعى الإيمانى).

فالإيجابية ليست اندفاعًا، وإنَّما حساب دقيق للأمور، ولكن حساب من منظور شجاع وليس من منظور جبان.

ولذلك فقيام ثورة التقدم الإيجابى يجب أن يخضع لهذا الحساب الـدقيق، ولكـل أمـر ظروفه الخاصة التى تقتضى درجة معينة من القوة لهذا التقدم الإيجابى، وعلى هذا فقد يكون



الاندفاع نفسه موقفًا غاية فى الإيجابية فى ظروف تقتضى ذلك، بل وقد يكـــون الترقـــب للأمور بصبر وحكمة فى بعض الظروف الخاصة التى تقتضيه موقفًا غاية فى الإيجابية أيضًـــا، فالحاكم الأساس لهذه الأمور - بعد افتراض شرعيتها - هو مدى التقدير الواعى للظروف المحيطة بكل موقف من المواقف، وأن يكون المنطلق لهذا التقدير هو المنطق الشجاع وليس المنطق الجبان.

والذى نعنيه بالمنطق الشجاع هو أن الإيجابية تتقبل ارتضاء الخسائر فى سبيل الحصـــول على المكاسب الأكبر.

وليس هناك موقف فى الوجود لا ينطوى على خسائر: هذا هراء!!.

ولكن منطق السلبيين يقصر أنظارهم على الخسائر فقط دون المكاسب، أو يضخم لهم هذه الخسائر ويحقر لهم من قيمة المكاسب (كمن يُفَيِّلُ النَّمْلَةَ وَيُنَمِّلُ الفِيلِ).

ومن أكثر الأشياء التى تردع الناس عن اتخاذ المواقف السليمة توقع الخســـائر وعـــدم التقدير السليم لقيمتها بالنسبة للمكاسب المقابلة لها.

والمنطق الشجاع هو الذى يتجاوز ذلك الخوف من الخسائر المحتملة، أما الوعى الإيجابى الذى أشرنا إليه فهو الذى يستطيع أن يوازن الموازنة الصـــحيحة بـــين تلـــك الخســـائر والمكاسب المقابلة لها.

وبذلك يمكن تحقيق الإيجابية المنشودة.

* * *

مفهوم التسامح والسماح

السلبية هي أن تعجز عن استرداد ما سلبه الآخرون منك، وتتنازل عن حقوقك، وترتضى ظلم الآخرين لك، وتحاول التستر على كل ذلك بادعاء التسامح، وبذلك تختلط المفاهيم، وتُمَيَّعُ الحقائق، وتُنْتَهَكُ المحارم، وتُؤْكَلُ الحقوق، ويُلْبَسُ الحق بالباطل لأزمنة طويلة؛ لأن التغرير بتطبيق التسامح فى غير موضعه يكون ذريعة لشياطين الإنس والجن لتحقيق مآربهم وبلوغ مطامعهم.

ويرجع ذلك إلى أنه عند اختلاط الحق بالباطل فى قضية ما فإن دعوة الطرف الذى أصابه الظلم بترك الأمر جملة على سبيل التسامح تنطوى على تَمْييعِ الحقائق التى تدور حولها القضية المطروحة أمام الناس.

ويكون ذلك ذريعةً للشياطين للحصول على مواقع جديدة للإضلال فى عقول الناس، وفرصةً للأفَّاقين للاستناد إلى ذلك الباطل الذى لم يُحْسَمِ الأمر فى شأنه فى تسويغ إضلالهم وَإِلْبَاسِهِمُ الحق بالباطل.

كما أن التسامح عن الظلم أو حتى التغاضى عنه ما دام لم يقر الظالم به و لم يتراجع عنه ينطوى فى الحقيقة على إقرار للظالم على ظلمه، وتمهيد الأرض لغيره من الظالمين ليعيثوا فيها فسادًا ما داموا لا يُوَاجَهُونَ ليس فقط بالعقاب ولكن ولا حتى بمجرد الإدانة، بل قد يكون ذلك مَدْعَاة لاغترار الظالم ذاته بنفسه وبأن ما فعله ليس ظلمًا وفى ذلك شرٌّ مستطير.

إن الدعوة إلى التسامح من قبل أن يقرَّ الظالم بظلمه هى دعوة ليست إلى استغفال المظلوم أو المجنى عليه فقط، وإنما هى دعوة إلى استغفال الناس أيضًا.

والإيجابية هى أن تمتلك القدرة على العقاب واسترداد الحقوق، وأن تحصل بالفعل على إقرار الظالم بظلمه، وأن تُحِقَّ الحَقَّ وتُزْهِقَ البَاطِلَ، وهنا فقط يمكن الاطمئنان إلى أن رغبتك فى التسامح هى رغبة حقيقية وليست ستارًا للعجز والسلبية اللَّذَيْنِ قد تصاب بهما

النفس أمام تطاول السنين على ظلم الظالمين، وهنا فقط من الممكن أن تقول: سماح.

ومن الطبيعي أننا لا نهدف بذلك إلى شحن النفوس بالأحقاد وشحذها نحو الانتقام والأخذ بالثأر - وإن يكن الثأر العادل بيد السلطان العادل أمرًا مشروعًا لا غضاضة فيه - ولكن ما نقصده هنا هو تربية النفس على الإصرار والقوة والعزيمة والإيجابية وليس تطويعها للانكسار والسلبية والتخاذل تحت ستار الدعوة إلى التسامح.

* * *

فلسفة التغيير فى الإسلام

لقد حاولت فى هذا الكتاب العمل على دفع القارئ إلى تبني القيم الإيمانية والتسلح بها كقيم مواجهة لمختلف التحديات التى تواجه الإنسان فى الواقع المُعَاشِ.

ومن هنا فإن تبنى هذه القيم يعنى تبنى قيم تغيير حاسمة داخل الإنسان نفسه، ويكون طبيعيًّا بالتالى أن يصطدم هذا التغيير فى الإنسان مع الواقع المُعَاشِ الذى يتناقض مع هذه القيم.

وإن كنا عملنا فى هذا الكتاب على بث الحماسة فى الكثير من صفحاته من أجل دفع قارئه إلى تبنى هذه القيم، فلا يعنى ذلك أننا نوافق على أن يتولى القارئ تطبيق قيم التغيير هذه على المجتمع المحيط به بنفس الحماسة التى ندعوه بها إلى تَبَنِّيهَا.

إن أصحاب الدعوات أصحاب مسئوليات جِسَامٍ، والذين يحملون قضايا يؤمنون بها هم أكثر الأشخاص قدرة على الوعى بالواقع والتعامل مع قوانينه، أو الاعتراك معها وتحمل المشاق فى سبيل ذلك حتى يتم ترويضها والتحكم فيها، ومن ثم امتلاك القدرة على تسيير المجتمع وتوجيهه إلى حيث الوجهة المنشودة من خلال التحكم فى هذه القوانين.

لذلك فالمرونة مع الأحداث هى إحدى مقومات شخصية المسلم، وإحدى قواعد فلسفة التغيير فى الإسلام، ولكن على الإنسان أن يعى أن هذه المرونة يُسْمَحُ بها فقط فى دائرة الأمور المؤقتة، فعند ذلك فقط تُحْسَبُ القواعد الشرعية فى المصلحة فى الترجيح بين أقل الضررين: الضرر الناتج عن عدم التغيير أو تأجيله، والضرر الناتج عن القيام بالتغيير بحزم.

يقول الإمام ابن تيمية[1]:

"وجماع ذلك داخل فى القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت فإنه يجب ترجيح الراجح منها.

---

(١) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ص: ٤٠- ٤١، طبعة المدنى.

فإن كان المعروف أكثر أمر به وإن استلزم ما هو دونه من المنكر... وإن كان المنكـــر أغلب نهى عنه وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف... وإن تكافأ المعروف والمنكـــر المتلازمان لم يُؤْمَرْ بهما و لم يُنْهَ عنهما، فتارة يَصْلُحُ الأمر وتارة يَصْلُحُ النهى، [أى: تـــارة يتولى الإصلاحَ جانبُ المعروف وتارة يتولى الإصلاحَ جانبُ المنكر] وتارة لا يَصْلُحُ أمـــر ولا نهى، حيث يكون المعروف والمنكر متلازمين وذلك فى الأمور المعينة". يقصد فى الأمور التى لا يمكن فيها تولى جانبًا دون جانب.

ومن يريد التوسع فى الأمر فعليه أن يرجع لكتاب شيخ الإسلام العز بن عبـــد الســـلام (قواعد الأحكام فى مصالح الأنام)، وهو من الكتب الفريدة فى التاريخ الإسلامى كله، وقد تناول هذا الموضوع باستفاضة شديدة وتقسيمات بديعة.

* * *

فى نهاية المطاف

وفى نهاية المطاف أقول للقارئ:

لقد حاولت وضع بعض منارات الضوء فى موضوع لا ينتهى إلى أن يـرث الله الأرض ومن عليها.

ألا وهو أثر العقيدة الإسلامية على تصورات المسلم وسلوكه فى الواقع المُعَاش، والعمل على وضع منهج إسلامى لبناء الشخصية القوية من القيم الإيمانية لهذه العقيدة، فأرجو من الله أن يكون قد حالفنى التوفيق، وأن يهدينا سبلَ الرَّشاد فى كل جهودنا من أجل خدمـة الإسلام والمسلمين.

* * *

محتويات الكتاب

كتب المؤلف

- الإسلام الليبرالى بين الإخوان المسلمين والعلمانيين والوسطيين.
- الإسلام والغرب الأمريكى بين حتمية الصدام وإمكانية الحوار.
- حقيقة العلمانية (ج١).
- حقيقة العلمانية (ج٢).
- تزييف الإسلام وأكذوبة المفكر الإسلامى المستنير.
- موقف الإسلام من الحب بين الرجل والمرأة.
- كن قويًا بالإيمان، طبعة ثانية.
- مواجهة المواجهة.
- الصراع حول المادة وجوهر الحياة.
- الإسلام والعولمة، طبعة ثانية.
- ابن رشد وفيلم المصير.
- علمانيون أم ملحدون.
- نظرية الفن الإسلامى.
- أنت أعطيت البراءة لقاتلينا (شعر).
- الرد على بابا الفاتيكان وهجوم الغرب على الرسول ﷺ.
- الإسلام النفعي.

* تحت الإعداد للطبع:

- قصائد استشهادية (شعر).
- نقد المذاهب والتيارات المعاصرة.
- أيتها الملكة: دمي على يديك (شعر).
- غرام تلميذه (شعر).



هذا الكتاب

هذه بعض القضايا التى يتناولها هذا الكتاب

- أركان العقيدة الإسلامية
- حقيقة الإيمان
- نواقض الإيمان
- أين الروح
- المنهج الإسلامى فى بناء الشخصية القوية
- هل توجد للإنسان إرادة حرة
- الصراع بين الرغبات والقيم
- علاقة الشخصية القوية بالإيمان بالقضاء والقدر
- الإيجابية والسلبية من المنظور الإسلامى
- الفرق بين الواقعية الإيجابية والواقعية الاستسلامية
- الشخصية السيكوباتية المسيطرة وكيفية استعبادها للشخصية الضعيفة
- مفهوم النجاح فى الإسلام
- الفرق بين التسامح والاستسلام

هذا الكاتب

أما الكاتب فهو المفكر الإسلامى محمد إبراهيم مبروك أحد أبرز المفكرين الأكثر إثارة للجدل فى هذه المرحلة من خلال كتبه المختلفة مثل :

- الإسلام الليبرالى بين الإخوان المسلمين والليبراليين والعلمانيين
- العلمانية العدو الأكبر للإسلام
- الإسلام والغرب الأمريكى : نظرية فى تفسير الصراع

ومحمد إبراهيم مبروك مفكر مستقل يجمع بين السلفية والتجديد بمعنى أن له مشروعه الفكرى المستقل عن التيارات الإسلامية المختلفة.

ولقد أكد مبروك من خلال مناظراته التى تابعها الملايين علي القنوات الفضائية الجزيرة وغيرها مع أعلام الفكر العلمانى من العرب والأمريكيين، أنه يمثل بالفعل -كما يوصف عادة- المدفعية الثقيلة للإسلاميين فى مواجهة العلمانيين ودعاة الفكر الغربى.

الناشر



الثمن
عشرون جنيهاً